ابرهيم اليازجي

١٢٦٣ — ١٣٢٤ ﻫ

١٨٤٨ — ١٩٠٦ م

هاجر من حمص أحد أجداد بيت اليازجي سنة ١٦٩٠ ونزل قرية كفرشيما من سواحل بيروت ، وكان أهل هذا البيت على مذهب الروم الأرثوذكس فانتحلوا الكثلكة ودخل بعضهم في خدمة الدولة العثمانية كاتباً فأطلق عليه اسم «بازيجى» أي الكاتب حرفت بعد فصارت يازجي .

ولد ابرهيم في بيروت وظهرت عليه مخايل النجابة في سن العاشرة وكان أبوه الشيخ ناصيف من رجال النهضة العربية الأولى وله مقام عالٍ في الأدب والشعر . وكان لقب الشيخ في لبنان يطلق على الطبقة التي كانت ترتفع عن العامة وتنحط عن طبقة الأمراء .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتخرج ابرهيم بأبيه في علوم العربية وحفظ القرآن في صباه وأخذ الفقه الحنفي عن الأستاذ محيي الدين اليافي وأولع بالرسم والنقش والحفر وامتاز بجمال خطه . وهو الذي نقش بعدُ أمهات حروف مجلتيه البيان والضياء وحروف المطبعة الأدبية وكانت منها حروف معظم المطابع في الشام ومصر .

وتعلم الفرنسية والانكليزية وأخذ بطرف من الألمانية . وقال أحد مريديه في الكلام على اتقانه الفرنسية انه سمعه يقرأ فصولاً استملح عربيتها ثم تبين ان نظره كان يجول في السطور الفرنسية فيلقيها لسانه بالعربية الفصحى .

قال لي المترجم له : لو كان لي الخيار لآثرت أن أكون رساماً مصوراً الا انني رأيت الأجدر بي الانصراف الى خدمة اللغة العربية حتى لا يُغلق

بيتنا بانقراض افراده المعنيين بهذه اللغة فيفوتني شرف خدمتها على ما كان الحظ لأبي في هذه الخدمة ·

انضم الشيخ في أول شبابه الى الجمعية العلمية السورية فألقى فيها الخطب وأنشد القصائد ثم تولى تحرير جريدة النجاح فحبّر المقالات وترسّل ، فكانت هذه الجمعية وهذه الجريدة مدرسته الأولى في البيان والصحافة ·

وعهد اليه الآباء اليسوعيون بتقويم ترجمة الأسفار المقدسة وكانت عربت عن أصلها العبراني واليوناني عدا ثلاث ترجمات عربية كانت أمام من قاموا على تصحيحها ، وكان تعريب المزامير والانجيل مقيداً بترجمة عبد الله زاخر لشهرة نصوصها في المعابد · فقضى الشيخ في هذا العمل ثماني سنين واضطرته معارضة الترجمة على المتن الأصلي الى التبحر في بعض اللغات السامية ولا سيما العبرانية والسريانية وألف في العبرانية كتاب نحو وصرف نسج فيه على منوال النحو العربي وصرفه ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علّم الشيخ دهراً في المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت خلفاً لأبيه فتخرجت به طائفة من الأدباء كانت لهم منزلة رفيعة في الآداب · وفي سنة ١٨٨٤ نشر بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة مجلة « الطبيب » سنة واحدة ثم هاجر الى مصر فأصدر فيها مجلة « البيان » بالاشتراك مع الدكتور زلزل سنة واحدة ، واستقل بعد ذلك باصدار مجلة « الضياء » وقد اطرد صدورها ثماني سنين حتى سنة وفاته · وكانت من أمتع المجلات العربية بجمال أسلوبها وطلاوة عبارتها وطرافة أبحاثها · وفي الضياء ظهرت شخصيته ، كأن ما كان مضى من حياته العلمية في لبنان قبل أن تصح عزيمته على نشر مجلته في مصر كان دور استعداد تجلى بعده نبوغه على أكمل حالاته ، وما سبق له من نشر آيات علمه وأدبه كان كالمقدمة قدمها بين يدي كتابه الشامل ·

وفي الطبيب والبيان والضياء توفر على نشر أبحاث متسلسلة استخرج من بعضها كتباً برأسها مثل « لغة الجرائد » . ومن أبحاثه الممتعة « أمالي لغوية » ، « أغلاط العرب » ، « أغلاط المولدين » ، « اللغة العامية واللغة الفصحى » ، « اللغة والعصر » ، « أغلاط لسان العرب » ، « المجاز » ، « الشعر » ، « التعريب » ، « العلوم عند العرب » الى غير ذلك من المقالات والأبحاث الممتعة . ومن كتبه « نجعة الرائد في المترادف والمتوارد » . ومنها اختصار أو تصحيح بعض كتب والده كمختصر « نار القرى » و « مختصر الجمانة » وشرح ديوان المتنبي سماه « العرف الطيب » . والى ذلك يشير في آخر هذا الديوان اشارة تنم عن بر بوالده قال : « وانا أبقيت عنوان الشرح باسمه ـ باسم أبيه ـ رعاية لكونه هو واضع الأصل فلم أوثر ان أتطفل عليه في نسبة الكتاب ، وان تطفلت عليه في التأليف . واني لأرجو ان يكون قد وهبني الله السلامة في ذلك كله ، وأنزلني من هذا الشرح منزلة توجب استدرار الرحمة على واضعه ، ولا تكون مدرجة لنقص بريّ به بأن أمرَ عليه تبعة تلزمني دونه او ينسب اليّ فضل هو أحق به مني . ومعاذ الله أن أدعي لنفسي في جنبه فضلاً أو علماً فانما أنا احتذيت بمثاله واقتديت بآثاره ، واني لا علم لي الا ما علمني » .

وصحح الشيخ كتباً كثيرة ومنها « تاريخ بابل وآشور » و « نفح الأزهار » و « دليل الهائم » و « نخب الملح » و « العقود الدرية » في شرح شواهد المختصر و « رسالة الغفران » للمعري و « الفرائد الدرية » وهو معجم عربي فرنسي . ونقد القسم الذي ترجمه باربيه دي مينار من مستعربي الفرنسيس من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي كما نقد تكملة المعجمات العربية لدوزي . ومعجم « محيط المحيط » للبستاني وسماه الحواشي ، ومعجم « أقرب الموارد » للشرتوني ، و « الدرة اليتيمة » لشكيب أرسلان ، وناقش أرباب المقتطف فيما وقع لهم من الأغلاط وغير ذلك .

وصرف شطراً من حياته في تأليف معجم سماه «الفرائد الحسان من قلائد اللسان» قال انه شرع في وضعه مقتصراً على الفصيح دون المولد والمحدث في لاصطلاح لأنه رآهما طرفين لا يلتقيان ولا تؤلف منهما حلقتا بطان ، فضلاً عما يقتضي بحث الطارئ من التجرد والجهد ، واخلاء الذرع للبلوغ الى باحة القصد ، فلا بد من افراد هذا القسم في كتاب مخصوص يحاط به بعد مراجعة الكتاب والنصوص قال : وقد وضعت الكتاب على نسق لم أكن متابعاً فيه ولا مقلداً ، ولا متحدياً ممن سبقني أحداً . فاني اعتبرت فيه جانب المعاني في كل مادة فقدمت منها ما حسبته الأصل في ذلك التركيب ثم ألحقت به ما تفرع عنه من طريق المجاز الأقرب بالأقرب الى أن تنقطع سلسلة الترتيب ، وما بقي بعد ذلك مقتضباً من ذلك النظام ذيلته في آخر المادة وضمنته المشهور من الأعلام ، وكل ذلك على أسلوب مختصر اطرحت فيه الوحشي من اللفظ والمهجور في استعمال الفصحاء وتجنبت ما يستحى منه من ألفاظ السوءات ، وما يضاف اليها مما تنبذه نفوس الأدباء ، وكنت قد بلغت في تسويده الى آخر حرف الحاء المهملة مما يقدر بالربع أو يزيد اه .

أولع الشيخ ببلاغة القرآن . حدثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر انه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه اذا تصدوا للكتابة ونشر المقالات أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون ، أو ما هذا معناه . فمن كان هذا اعتقاده لا يعقل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته على ما اتهمه بذلك بعض الطوائف من أنه عارض القرآن وحط من شأنه في رسالة له نحلته اياها وما هي الا من أقلام بعض دعاتهم .

وكان أعداء الشيخ من الفريق الذي أصلاهم الشيخ نار نقده مثل صاحبي المقتطف وسعيد الشرتوني وشكيب أرسلان وجماعة اليسوعيين ، وعلى مطبوعات

هؤلاء حمل حملة شعواء وكثيراً ما عمد في حوارهم الى السخرية وربما انتهى بعض هذه المناقشات بالمهاترة أحياناً وأدى بعضها الى ما كان يودّ أحباب الشيخ لو تصوّن عنها . وقيل ان الشيخ كان ينشر أشياء باسم بعض تلاميذه أو بأسماء مستعارة غيرهم فيما لا يريد أن ينسب اليه . وهذا أيضاً لا يخليه من تبعة خصوصاً وهو في بعده عن اللغو والتحلي بالفضائل النفسية المثل الأعلى . بيد أنه جُبِلَ على حب المطارحات والمناظرات وبها تجلت ملكته في البيان هذا التجلي الرائع ، اذا أريد التنظير بين كلامه وكلام معاصريه وفي المناقشة التي دارت بينه وبين العلامة احمد فارس كان أكثر اعتدالاً مع أنه كان شاباً وخصمه كان شيخاً .

كان الشيخ يألم ممن يرتكب غلطاً لغوياً أله ممن يسيء اليه مباشرة فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يهدى اليه من الكتب الجديدة لتقريظه والتنويه بصاحبه ، وكل ذلك حتى لا يعبث باللغة عابث و « كان أقصى أمانيه أن يعيد الى اللغة بهجتها الأولى ويرد الناشئة من كتاب العصر الى النهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقررة في أمهات المعاجم ، وكتب البلاغة المعروفة بصحة التعبير وفصاحة الألفاظ ، والا يعدل الى المولد الدخيل الا بعد طول البحث والتنقيب ، واجماع أهل العلم الواسع من المحققين ، وبعد اليأس من الوقوع على الفصيح الأصيل . »

ومما كان يحزنه ان اللغة لا تفي بمطالب العلم في هذا العصر ولذلك وضع الفاظاً لمسميات افرنجية سرى بعضها على أسلات أقلام الكتاب والصحافيين في حياته ، وعرَّب بعض المصطلحات تعريباً صحيحاً ولو طال به الأجل لاستكثر من كل ما يفيد اللسان العربي حتى يداني بمادته العلمية لغات العلم عند الافرنج ويؤدي على أيسر وجه معاني الألفاظ الجاري استعمالها في العلم والاجتماع والفن والصناعة .

قال لي مرة وأنا أسأله رأيه في اللغة العصرية : اني مغتبط بأن اللغة علت بلهجتها ، وقلّ فيها الابتذال الذي كان لها أول نهضتها ، ويتخللها الآن من الفصيح

ما لم يكن يعهد فيها في عصور الانحطاط · وكيف لا يفرح لسمو اللغة وهو من أول العارفين بجرس الألفاظ ورنتها وخفتها وثقلها ، وادراك أجدر المواضع باستعمالها · درج حياته على تصفح كتب البلغاء والتقاط ألفاظها وتراكيبها الجميلة يتمثلها ويدمج في تضاعيف كلامه ما تقتضي الصناعة بادماجه ، بقرنها الى أمثالها مما وعاه صدره ، وبهذا ارتفعت كتابته عن كتابة غيره اذ توفرت لها المادة والقوالب وعرف أساليب الكتاب على اختلاف العصور فبعد عن مستوى غيره · يعين على ذلك ذوق سامٍ جمع بين أدب الافرنج والعرب · هذا وهو لم يعالج من فنون الانشاء الا ما أخذ من نفسه ، ولا تتعلق همته على الأكثر بغير الموضوعات الأدبية والتاريخية القريبة المأخذ مما لا يتعاصى تفهمه على من شدوا شيئاً من الآداب ·

كانت مجلة « الضياء » كتابه الأم حفلت بالفوائد الأدبيـة واللغوية حتى ليستخرج منها عدة كتب ، ومن أهم ما ينتزع منها مجموعة جميلة من نقده الأدبي وتحرياته · يستخرج منها أسفار نافعة حري بالناشئة أن تجعلها سمرها في خلوتها وتتخذها أصولاً للبلاغة · وفي مجلته هذه يتمثل لعينيك جهده في انشائها وتوفره على اتقان أبحاثها حتى لقد صدته عن النظر في سائر مؤلفاته ومنهـا معجمه ، ويبدو لناظرك ان صاحبها قد نقى اللغة وغربلها وطحنها ونخلها وعجنها وخبزها فجاء منها بكل لقمة كريمة وحلواء لذيذة ·

وكان باب النقد مما يحبب مجلة الضياء الى القراء ذلك لأنه كان على مثل اليقين ان أبحاثها لا تخلو من جناف كان يداويه بشيء من الفكاهات والأقاصيص يكتبها له أهل هذا الشأن من تعريبهم او تأليفهم · والناس أميل الى تلقف ما يسليهم منهم الى الجنوح الى ما يتعلمون منه ، ولو بحصر أذهانهم دقائق معدودة ، والبحث في الآداب مما يثقل على السواد الأعظم وهم لا عهد لهم بالنظر في هذه الأبحاث ويعدونها من الأبحاث الجامدة ·

وكانت الضياء تبرز الى قرائها في حلة لبنانية بروحها وموضوعها · اذا قرأها القارئ تراءى له انها تكتب في لبنان وتطبع في مصر · وترى منشئها فيها وقد التف حوله تلاميذه وذوو قرباه ومواطنوه من الشاميين يؤازرونه في انشاء عنه فيما يتقنون من الموضوعات فلا يكاد المتأمل يقع بينهم على كثير من النابهين المصريين ينشرون أبحاثهم في مجلته · ولعلّ العلة في ذلك ابتعاد الشيخ عن الاختلاط بالناس ، فأكثر الشاميين في مصر يعيشون بين الجالية السورية لا يمتزجون بالمصريين كثيراً · على انه يندر يومئذ في المصريين رجال من الطراز الذي تعجب صاحب المجلة كتابته وبحثه ·

لم ينصرف الشيخ الى الشعر انصرافه للنثر ولذلك يعد من المقلين منه ، استخدمه في أغراض اجتماعية على الأغلب ، كأن يذكر العرب بمجدهم او يدعو القوم الى كسر قيود الاستبداد وتطلب الحياة الحرة والقضاء على من وقفوا عثرة في سبيل نهوض العرب وكانوا سبباً في تدنيه وخموله ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فمن شعره في هذه المعاني :

وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في أجفن العَلْيا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم ... وان جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديماً ... أيادي ليس تنكرها الشآم
وفي أرض الحجاز لنا فيوض ... يسيل لها الى اليمن انسجام
وفوق الأندلس لنا بنود ... لهامات النجوم بها اعتمام
وسل في الغرب عن آثار فخر ... لها في جبهة الزمن ارتسام

وله السينية المشهورة ومطلعها :

دع مجلس الغيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس

الى أن يقول :

فالشر كل الشر ما بين العمائم والقلانس
والخير كل الخير في هدم الجوامع والكنائس
ما هم رجال الله فيكم بل هم القوم الأبالس
يمشون بين ظهوركم تحت الطيالس والقلانس
أيُّ النعيم لمن يبيتُ على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً أبداً لذيل الترك «بائس»
ولمن أزمته بكف عداه يظلم وهو آيس
ولمن تباح حقوقه ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانه خرباً كأطلالٍ دوارس

وقال في الترك :

فالترك قوم لا يفوز لديهم الا المشاكس
أولستم العرب الكرام ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابس
عمت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارس
حال بها طاب التبسم للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدما وسفكها للجور حابس

ومثلها قصيدته :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعكم وأنتم بين راحات القنا سلب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ثم يعرض بحكام تلك الأيام فيقول :

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم … وخير جندهم التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهـد اذا عقدوا … ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا
بالله يا قومنا هبوا لشأنكم … فكم تناديكم الأسفار والخطب
ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا … شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا
فمالكم ويحكم أصبحتم هملاً … ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم … بهـا ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة … وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وأظن هذه القصيدة هي التي اتهم بها أحد الأدباء يومئذ وحبس بها سنة كما قال لي الشيخ رحمه الله • وهذه القصائد تنادي بأنه كان حراً يدعو الى الحرية وعربياً يبكي لمجد العرب ويحاول أن ينزعوا من ربقتهم حكم العثمانيين وينجوا من الاستعباد • وهو ما كان يطيب له ادعاء هذه القصائد لأن قصده مجرد عن الغاية فلا يطمع في الظهور والتمجد • ولو ظهر عليه أدنى أثر من الانكار على الدولة لناله من العقوبات أفظعها فهو بعقله وحيطته يتقيهم ولا يرتكب مالا يرضيهم على ما كان يتقي أهل بيئته ، وبيئته كانت جد متعصبة جامدة ، وكنت تلمح حرية فكره تلمع أشعتها من خلال ما ينشره ويتجلى للناقد البصير أنه معلم حكيم يرمي الى تهذيب النفوس بكل مالديه من الذرائع ، ويحاول اخراج أمته الى طريق سليم ليدخلها في غمار الأمم الناهضة وهو الذي يعرف مبلغ أمته من معاونته ومعاونة أمثاله ولذلك لم يجاهر بدعوته لأن الأمة خلت من هذه المعاني وما كانت تفكر الا في الساعة التي هي فيها •

وما سلم الشيخ من عيوب الشعراء المتأخرين فقد كان أصحابه وجيرانه وأهله يريدونه على أن ينظم تواريخ لأضرحة موتاهم ، وكان يرجى ألا يقبل اضاعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقته في مثل هذه المنظومات ومنها المدح والرثاء ، وما كان الحامل له على نظمها الا ارادة التخلص من تعجيز المعجزين وقد اعتاد الناس ألا يرضوا عن الشاعر الا اذا مدح أحياءهم ورثى موتاهم . وقد أثرت له رسائل لك أن تدعوها من جنس الاخوانيات كان يبعث بها الى أحبابه أو الى ارباب الوجاهة لدفع مغرم وجلب مغنم لمن يتوسطه ، يكتبها من حاضر الوقت لا يتعمل فيها ، وأكثرها مسجوع اذا تلوتها تراءى لك انه ينسج فيها على منوال الهمذاني والخوارزمي والصاحب . ومن شعره الجميل يذكر حمص منبت أجداده :

وسقى الله أرض حمص وحيت نفحات الرضا خصيب ثراها
هي فردوسي القديم ومنها ثمرات الحياة كان جناها

ومنه :

لبس الوقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
اني أضن بعرضي أن يلم به غيري فهل أتولى خرقه بيدي

وقال في ساعة دقاقة :

ومحصية أعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيابنت هذا الدهر مرت بسيره فهل أنت دون الناس منه على أمن

وقال في عود الطرب :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصفو لديه المجالس
تعشقه طير الأراكة أخضراً وحن اليه ريشه وهو يابس

وقال في بعلبك :

يا بعلبك غريبة الأزمان والعهد والصناع والبنيان
لم تبلك الأيام في حدثانها الا لتظهر قدرة الرحمن

وقال :

تعجب قوم من تأخر حالنا ولا عجب في حالنا ان تأخرا
فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرؤس غدونا بحكم الطبع نمشي الى الورا

وقال في الحكم :

حياة أمرُّ العيش فيها مذمم وناس بها قلب الخليّ متيم
سقت كل قلب كل يوم مشاربًا توهم فيها لذةً وهي علقم
وما الأرض الا قفرة زأرت بها أسود المنايا حولنا وهي حوَّم
لها كل يوم بيننا كل منذر ينادي علينا مسمعًا وهو أبكم
تنبهنا بعضًا ببعض فتنثني وأجفاننا في غفلة اللهو نوَّم
خلت دونها شم الحصون فلم تكن لنا كنها من غارة البين تعصم
وأصبح من قد كان يرهب بأسه يناح عليه بعد حين ويرحم
تراب من الأرض استوى تحت صورة تلوح عليها مدة ثم تهدم
اذا ما دفعنا للبلية مرة ولم تنتفع بالحزن فالصبر أحزم
جرى قدر المولى بما شاء واستوى لديه جزوع في الأسى ومسلّم
وليس لنا من مطمع فات نيله اذا كان ما نبغيه ما ليس يغنم
وما كان ما لا بد منه مؤخرًا يهون لديه الرزء وهو مقدم
وما الفرق في الحالين الا هنيهة تمر سريعًا والقضا متحتم

ومن قوله في الحكم أيضًا :

وانما نحن في دار اذا اعتبرت ليست سوى مأتم ناحت به البشر
في كل يوم أناس فوقها فجعوا على أناس طوتهم تحتها الحفر
بئس الحياة التي ما زال واردها يمازج الورد في كاساته الصدر
حالان احداهما مملوءة حذرًا مما يليها وأخرى فاتها الحذر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال في مصير الأرض من مقالة :

واعتبر ذلك في الأرض وما يؤلف أديمها من الجواهر ، ويشتمل عليه جوها من العناصر ، وما يعيش عليها من النبات القائم في الصحراء ، والحيوان السارح على وجه الغبراء ، والسابح في لجتي الماء والهواء ، تجد هناك سلسلة يتصل أعلاها بأسفلها ، ويتحول بعضها الى بعض حتى يرتد آخرها الى أولها ، بل ترى الأرض نفسها عرضةً للطبيعة تغزوها بالسيول الجوارف والرياح النواسف ، والأمواج التي تهاجم ثغورها والزلازل التي تصدع صخورها ، متعاقبة عليها ما تعاقب الليل والنهار ، الى ان يأتي يوم تنحل فيه الجبال ، وترسب في درك البحار ، ثم لا تزال المياه تسحل وجه الأرض حتى لا يبقى فيه أمت ولا انحناء ، وحتى يغمرها الماء من كل ناحية وقد عاد سطحها مستوياً تحت الماء كاستواء سطح الماء ، فعادت كما كانت في اول خلقها ماء غامر وكون بائر ، قد خلا من عالمي البر والهواء ، ولم يبق فيه من ذوات الحياة الا عالم الماء .

«هذا اذا لم تصب الأرض قبل ذلك بالهرم ، وينضب ماؤها بعد غمود ما في باطنها من القرم ، ولم تتشرب هواءها فلا يتنفسه بعد ذلك نبات ولا حيوان ، ولا يجد ذو جناح ما يعتمد عليه جناحه في الطيران ، على حد ما تم ذلك في القمر حتى لم يبق فيه وشل لمرتاد ، وحتى تجرد من ثوب هوائه او كاد ، وحتى اصبح قفراً هامداً لا ينبت عليه شجر ، ولا يتنفس فيه دابة ولا بشر . بل لو بقي هواء الأرض وهو خال من بخار الماء لجمد البر وسطحها تجميداً ، وانقبض الأحياء من وجهه حيث يقع شعاع الشمس عموداً . ثم لا يزال بساطهم يزداد ضيقاً على توالي الحقب ، الى ان تموت آخر عشيرة منهم بالبرد والسغب ، فتدفنها الثلوج حيث لا تنكشف رممها الا يوم التلاقي . وتخط يد القضاء على أديم الأرض سبحان الحي الباقي .

«وهذا اذا لم تهرم الشمس فتقلب نارها برداً ، ولكنه يرد بغير سلام ، فتهيم السيارات والأقمار بمن حولها في فضاء من الزمهرير والظلام ، ويومئذ لا يبزغ الصباح فيذهب آفاق المشرق ولا يقبل الماء فيخيم على أرجائه بجيشه المطبق ، ولا يكون اذ ذاك كسوف ولا خسوف ، ولا تبدو القبة الزرقاء بلونها المألوف ، ولكنها تلتحف السواد حداداً على عالمها بالأمس ، وقد التف بكفن من الثلج فآوته منها الى مثل ظلمة الرمس . ويومئذ تتجمد البحار فلا يكون موج يتنفس ، ولا سحاب ينبجس ، ولا سيل يتدفق ، ولا جدول يترقرق . وتركد حركة الهواء ، فلا تهب شمال ولا صبا ، ولا تجري نسمة على الوهاد والربى . وأنت والشمس مصدر الحركة في العوالم ، وقوام الحياة لكل قائم ، فاذا هبت الريح فالشمس هي التي تهب ، واذا دبت النسم فالشمس هي التي تدب ، واذا انتشر الغمام فهي التي تنتشر ، واذا انهمرت الغيوث فهي التي تنهمر ، ألا وهي الشمس التي تجري في الأنهار ، وهي التي تغرد في الأطيار ، وهي التي تزهر في الرياض ، وهي التي يسمع حفيفها في الغياض ، وعلى الجملة فالشمس هي روح الكائنات وفؤادها ، واذا ماتت الأفئدة فمحال أن تعيش أجسادها » ا ه .

وبعد فلم ينبغ لبنان أكتب من الشيخ فيما أعتقد ولا أجزل حظاً منه في علوم البيان وندر أن كملت لغيره ما كمل له من عبقرية صقلتها العناية أي مثل ومن قام بواجبه في خدمة اللغة وسلك كل طريق نافع في غرضه . فقد قال فيه الأستاذ الامام محمد عبده انه أكتب من اديب بكثير بل هو أكتب المعاصرين فيما أرى . وناهيك بها من شهادة . وقال فيه الأستاذ شيخو ان كلامه يظهر لقارئه كأنه المرآة الصقيلة أو الماء الزلال ، فكان لا يزال يردد النظر فيما كتب وينقحه مراراً حتى يخرجه كالبرد القشيب والخميلة الناعمة .

وقال الأستاذ عبود « ان انشاء الشيخ لبس بالانشاء المتفق العالي اذا استثنينا صدر مقالتي الزهرة والقمر وفيهما ظهر أنه ناثر فني من الطراز الأول فخياله

طريف فيها وسجعه أنيق ظريف ، كأنه الشعر أو فوق الكثير من الشعر ، وقد كتب جل نثره بأسلوب العلماء والمؤرخين والكتاب الاجتماعيين ، وتضلعه من اللغة وادراكه أسرارها أدى به الى العدول عن المجاز ، وله فضل على النهضة بتعابيره الصحيحة ، وكان له أبعد الأثر في توجيه كتاب النهضة نحو الكلام الصحيح السليم ، ولئن كان في انشائه جفاف أساليب العلماء فلا تنس ان فيه صحة وشدة أسر» .

كان سمت الشيخ سمت العلماء وكان على جانب عظيم من الوقار تقرأ في طلعته جلال العلم وجمال الأدب وتحس في كلامه كأنك في مجلس فيلسوف أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق : عقل عالم ، وحكمة حكيم ، وعين فنان ، وذوق شاعر .

كان الشيخ مأخوذاً بعلمه مخلصاً له ، لم يتعلق من الحياة بغير المعنويات ، دار حياته في دائرة ما حدثته نفسه أن يتخطاها قيد أنملة فلم يخرج فيها عن نشر العلم والآداب ، وخدم لغة القرآن خدمة لم يوفق الى أكثر منها أكبر علماء الاسلام ، وعاش مقلاً متقشفاً لم يطرق أبواب الملوك ولا رجال المال ليستعين بهم على ما يضطلع به ، ومع أنه سبق للدولة المصرية قبله أن عاونت اللبنانيين العظيمين بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق من رجال النهضة الأولى فهو لم يجد من حكومة مصر العربية عوناً وغفل أغنياء المصريين والشاميين عن الأخذ بيده . وكان يشير في الأحايين الى هذا النقص في أخلاق الأمة ويردد ان الأغنياء وارباب الشأن بمعزل عن نشدان المطالب العالية والمشاركة في الأمور النافعة .

عاش الشيخ عزيز النفس وما أسفَ الى ما أسف أكثر علماء عصره ومات لم يتزوج ولم يعرف سعادة البيوت وعطف الولد . ومن أغرب ما يسجل أن

حكومة لبنان اقترحت عليه أن توليه « قائم مقام » على زحلة وهو عمل يقوم به بعض تلاميذه على أنه لم يخلق للادارة ولا للسياسة . وكافأته الجالية السورية في البرازيل بعد وفاته بأن صنعت له تمثالاً نصبته ببيروت في احدى ساحاتها .

قلت فيه يوم نعيته في جريدة « المؤيد » : قضى حياة المتعلم والمعلم والعالم على أكمل وجوهها ، وبرز خاصة في علوم العربية على أقرانه فعد من آحاد زمانه . نشأ في بيت كان ربه يتغنى ليله ونهاره بالشعر والأدب فشب وشاب فيما نشأ عليه وأنشئ له . وناهيك بمن يرضع اللغة من صغره ويعاني الأدب في جميع أدواره ، لا يصل الى سمعه غيره ولا تقع عينه على ما سواه. والجميع مستحسن له ومصفق ومؤمن على أقواله ومصدق ... ولا بد لمن يتمحض للانتقاد أن يلاقي ما لقي الشيخ اليازجي فيصاب ويصيب . والناس لم يألفوا الانتقاد وأكثر المتقدمين يعدون الانتقاد ثلماً لشرفهم واسقاطاً لأقدارهم ، والناقد كيفما كانت الحال لا تصفو له القلوب » .

محمد كردعلي

تعريب الاصطلاحات العلمية

اللغة العربية من أغنى اللغات ، وأوسعها اشتقاقاً ، وأدقها تعبيراً ؛ صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرناً حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة ، واصطنعها العلماء في مفردات الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلم والثقافة .

والسبب في اتساع اللغة العربية لجميع الاصطلاحات العلمية انها لغة غنية كثيرة المرونة ، لطيفة المخارج ، فيها ألفاظ متباينة ، ومتفقة ، ومترادفة ، ومشتقة [1] . وربما وجدت فيها أيضاً ألفاظ مختلفة دالة على معان متقاربة ، وان كانت أشخاص تلك المعاني مختلفة ، وربما دلت على أحوال مختلفة ولكنها مع اختلافها هي لشخص واحد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن هذه المرونة في دلالة الألفاظ على فائدتها لا تخلو في بعض الأحيان من الالتباس والاشكال ، ولا من الغلط والخطأ في التعبير . لأن الأصل في الكلام هو أن تختلف الألفاظ بحسب اختلاف المعاني . ومن حق المعنى كما قال الجاحظ أن يكون الاسم له طبقاً ، وأن لا يكون له فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً [2] .

ولكن العلماء الذين أخذوا في عشرات السنين الأخيرة يدونون علوم العصر ، وينقلونها من اللغات الأوربية الى اللغة العربية لم يتقيدوا بهذا الأصل الذي

---

(١) المتباينة هي التي تختلف باختلاف المعاني ، والمتفقة هي التي تتفق فيها الفاظ واحدة بعينها ومعانيها مختلفة . والمترادفة هي التي تختلف الفاظها ومعانيها واحدة .
(٢) البيان والتبيين ، الجزء الأول ، ص : ٧٥ .

قدمناه ، بل مالوا الى استعمال الألفاظ المترادفة تدلالة على المعنى الواحد ، أو الى استعمال اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة • فعرض لهم من الخلاف في المعاني ما عرض للشعراء والخطباء وأصحاب السجع من استعمال الألفاظ المترادفة والمتواطئة ، وان كانت متباينة بالحقيقة • فأدّى فعلهم هذا الى الالباس والاشكال ، والى كثير من الغلط والخطأ • مع انه كان ينبغي لهم اذا وجدوا ألفاظاً مختلفةً متقاربة المعاني أن ينظروا فيها ويبحثوا عن السبب في اختلافها ليضعوا لكل معنى لفظاً مطابقاً له ، الا أنهم قلدوا في ذلك البلغاء والشعراء والخطباء فجاءت اصطلاحاتهم كثيرة الغموض وعلومهم قليلة الوضوح والضبط •

والدليل البين على ان الأمر على ما ذكرناه ان الشخص الواحد يستعمل للدلالة على المعنى الواحد ألفاظاً مختلفة فيترجم كلمة (Déduction) تارة بالاستدلال وأخرى بالاستنتاج أو الاستنباط ، ويستعمل اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة فيترجم كلمات (Intelligence) و (Raison) ، و (Bon sens) كلها بكلمة عقل •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واذا كان الشخص الواحد لا يتقيد هو نفسه بالاصطلاحات التي اختارها ، فما بالك بالمترجمين الآخرين الذين قد يوافقونه على اختياره أو يخالفونه ويخالفون أنفسهم ؟ وما بالك بالقارئ الذي يجهل اللغة الأجنبية ، هل يفهم ما يقوله هؤلاء وما يكتبونه ؟

ان مدار الأمر والغاية التي يجري اليها الكاتب والقارئ ، انما هو الفهم والافهام • فاذا كانت معاني الألفاظ تختلف باختلاف القائل والسامع فكيف تتضح ، وكيف تفهم ؟ ان التفاهم بألفاظ متبدلة المعاني أصعب من التعامل بنقود متبدلة القيم ، فلا بدّ للعلماء اذن من الاتفاق على معاني الألفاظ ، ولا بدّ لهم أيضاً من تثبيت الاصطلاحات العلمية حتى لا تتبدل الحقائق بتبدل الألفاظ التي أفرغت فيها • ان الألفاظ حصون المعاني وتثبيت الاصطلاحات العلمية

هو الحجر الأساسي في بناء العلم . فاذا أقيم هذا البناء على أساس متحرك لم يبلغ الغاية التي أنشئ من أجلها .

على أنه قد يقال ان الأساس في العلم هو الكشف عن الحقائق ، وان الحقيقة اذا كشفت فبأي لغة بلغت الافهام فذلك هو البيان المطلوب . ولكن هذا القول يهمل ناحية أساسية من الاصطلاحات العلمية وهي ان السبب الذي من أجله احتيج الى وضعها لا يقتصر على الافهام وحده . لأن العالم بالشيء يفهمه مهما تكن اللغة التي تستعملها في تفهيمه اياه ركيكة ومضطربة . ولكن تثبيت الاصطلاحات العلمية لا يفيد العلماء الاخصائيين وحدهم بل يفيد المعلمين والمتعلمين كما يفيد جمهور القراء . فله اذن فائدة في التربية ، وفائدة اجتماعية معاً .

أما الفائدة في التربية فهي ان تثبيت الاصطلاحات يستلزم تحديد معاني الألفاظ وتوضيحها ، فلا يستعمل اللفظ الا فيما وضع له ، ولا يدل على المعنى الواحد الا بلفظ واحد . وفي ذلك تيسير لعمل المعلمين والمتعلمين معاً . لأن المعاني اذا كانت محددة ، سهل على المعلم شرحها وعلى المتعلم فهمها . وكذلك الألفاظ اذا كانت مطابقة للمعاني صار استعمالها أدق ووضوحها أتم . وقد عرفنا بالتجربة أن التلاميذ الذين يقرأون النصوص الفلسفية دون أن نشرح لهم اصطلاحاتها يضيعون زماناً طويلاً في تفهم ما يقرأون دون أن يصلوا الى نتيجة . وكثيراً ما يورثهم هذا الأمر كرهاً للفلسفة وعجزاً عن النجاح في الامتحان . حتى ان بعضهم وان نجح في خوصه يعتاد استعمال الألفاظ الفارغة فيردد ما قرأه كالببغاء أو يلوكه كما يلوك الطفل طعامه . وهذه العقول الببغائية التي تردد الألفاظ الفارغة تعجز في مستقبل حياتها الفكرية عن الانتاج العلمي . وربما كانت تمارين الترجمة التي تقتضي مراجعة معاني الألفاظ في المعاجم العلمية والفلسفية خير وسيلة لشفاء هذه العقول من الببغائية الفكرية ، لأنها تمنعها من استعمال ألفاظ لم تتضح معانيها ، وتعودها الدقة في التعبير ، والمطابقة بين المعنى واللفظ ، فلا يكون أحدهما زائداً على الآخر .

وأما الفائدة الاجتماعية فهي ان تحديد معاني الألفاظ يسهل على الناس التفاهم فيما بينهم ، فلا يتكلمون بما لا يعلمون ، ولا يمارون فيما لم يتضح لهم من المعاني . ان معظم الاختلافات في الآراء السياسية والاجتماعية يرجع الى أن الناس لم يحددوا معاني الألفاظ التي يجادلون فيها . فالحرية والعدل والمساواة لا تدل على معان واحدة عند الاشتراكيين والمموّلين ، وكذلك الحق والواجب والخير والكرامة وغيرها . فاذا أردت أن تحسم الخلاف بين الناس ، وتحقق التفاهم بين أصحاب المذاهب المتباينة فابدأ أولاً بتحديد هذه المعاني تحديداً علمياً واضحاً . ان هذا التحديد يقرب الآراء بعضها من بعض ويبطل أسباب الخلاف ، ويوفر على الناس كثيراً من الجهد والوقت .

وربما كانت الألفاظ التي يستعملها المترجمون المحدثون أكثر الألفاظ احتياجاً الى هذا التحديد ، لأنهم – كما قلنا – لا يطلقون على المعنى الواحد لفظاً واحداً . مثال ذلك ان بعضهم يترجم كلمة (Intuition) بكلمة حدس ويترجمها الآخر بالبداهة أو الاكتناه ، أو الاستبصار ، وكذلك كلمة (Conscience) بعضهم يترجمها بالشعور وبعضهم يترجمها بالوعي . فاذا استمر الأمر على هذه الحال أدى الى كثير من الفوضى والاضطراب ، لأن النقلة ، اذا لم يوحدوا اصطلاحاتهم عجزوا هم أنفسهم عن فهم ما ترجموه . ولا يكفي أن تتطور الاصطلاحات العلمية تطوراً عفوياً حتى تصل الى الوحدة ، لأن التطور العفوي قد يؤدي الى الاحتفاظ بألفاظ كثيرة للدلالة على معنى واحد ، واذا أدى الى انتصار لفظ على غيره لم يكن هذا اللفظ الفائز في المعركة أحسن الألفاظ دائماً . فلا بدَّ اذن من توجيه هذا التطور حتى يبلغ غايته . والوسيلة الوحيدة للتوجيه الصحيح تقتضي انشاء مجمع علمي واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى اليها النقلة الاخصائيون اصطلاحاً واحداً يثبته ويحله حظيرة اللغة ، لا أن يضع هو نفسه اصطلاحاً علمياً جديداً . ذلك لأنه ليس من شأن المجامع العلمية ان تضع

الاصطلاحات وانما هي بمثابة عضو رئيسي في جسم العلم، ينقح ما يكشفه العلماء، ويمحصه، وينظمه، ويثبته. واذا خرجت المجامع العلمية عن هذا الحد الذي يجب عليها ان تقف عنده عرضت نفسها لكثير من الخطأ والغلط والنقد.

ان لكل علم لغة فنية، والعلماء الاختصاصيون وحدهم يفهمون هذه اللغة. فأنت لا تفهم معنى كلمة (تفاعل) الا اذا كنت كيماويا، كما انك لا تفهم معنى الساحة المغناطيسية الا اذا كنت فيزيائياً. ومن كان طبيباً كان قادراً على الكلام عن المرضى بلغة لا يفهمها المريض. وكذلك لما كانت الألفاظ التي يستعملها الفلاسفة لا تختلف عن الألفاظ التي يستعملها الأدباء الصحافيون والمحامون كان هذا الاتفاق فيها أدعى الى الإشكال والاضطراب. ان رجال الأدب لا يستغنون عن اصطلاحات علم النفس، كما أن رجال السياسة لا يستغنون عن اصطلاحات علم الاجتماع والأخلاق. ولكن الفلاسفة الذين يستعملون كلمة ذاكرة وعقل وحقيقة وواجب وحرية وارادة لا يبلغون غايتهم الا اذا كانت هذه المعاني المتصورة في أذهانهم محددة معرفة. وكثيراً ما يكون لبعض هذه الألفاظ في أذهانهم معان مخالفة لما يتصوره المحامون والأطباء والمهندسون. فينبغي لنا اذن اذا شئنا أن نختار اللفظ الموافق للمعنى العلمي أن نعتمد في ذلك على أرباب الاختصاص لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه. ومتى عرض علينا الاخصائيون ألفاظهم نقحناها ومحصناها واخترنا أوفقها وأصلحها وثبتناه في معاجم اللغة..

والسبيل الواضحة والطريقة الصحيحة التي يجب على الاختصاصيين اتباعها في وضع الاصطلاحات العلمية الموافقة تنحصر عندنا في القواعد الآتية :

القاعدة الأولى : هي البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته. ويشترط في هذه القاعدة أن يكون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللفظ الذي استعمله القدماء مطابقاً للمعنى الجديد . فاذا وجدناه مطابقاً له أطلقناه عليه دون تبديل أو تغيير . مثال ذلك أن القدماء أطلقوا لفظ الجوهر على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Substance) ، وأطلقوا لفظ المقولات على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Catégories) فاذا أردنا ان نترجم هذه الألفاظ أطلقنا عليها الأسماء التي سماها بها من عرفها من أصحاب اللغة .

والقاعدة الثانية : هي البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الأوربي الحديث ، فيبدل معناه قليلاً ويطلق على المعنى الجديد . مثال ذلك ما ترجمنا به لفظ (Intuition) ، فقد أطلقنا على هذا المعنى اسم الحدس بعد أن وسعنا معناه القديم . فالحدس كما يقول الجرجاني في تعريفاته « هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ الى المطالب ويقابله الفكر ، وهو أدنى مراتب الكشف » ، والحدسيات عنده هي « ما لا يحتاج العقل في جزم الحكم فيه الى واسطة بتكرر المشاهدة » ، ويعبر ابن سينا عن ذلك بقوله : « ان من المتعلمين من يكون أقرب الى التصور لأن استعداده ... أقوى ، فان كان ذلك الانسان مستعداً للاستكمال فيما بينه وبين نفسه سمي هذا الاستعداد حدساً ، وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في ان يتصل بالعقل الفعال الى كبير شيء والى تخريج وتعليم » . ثم يقول : « الحدس فعل للذهن يستنبط به بذاته الحد الأوسط . والذكاء قوة الحدس ، وتارة يحصل بالتعلم ، ومبادئ التعليم الحدس . فإن الأشياء تنتهي لا محالة الى حدوس استنبطها أرباب تلك الحدوس . ثم أدوها الى المتعلمين . فيمكن ان يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية الى ان يشتعل حدساً ، أعني قبولاً لإلهام العقل الفعال ، في كل شيء ، فترتسم فيه الصور التي في العقل الفعال من كل شيء

اما دفعة واما قريباً من دفعة »[١] ويقول أيضاً في كتاب الاشارات : « واما الحدس فهو ان يتمثل الحد الأوسط في الذهن دفعة ، اما عقيب طلب وشوق من غير حركة ، واما من غير اشتياق وحركة »[٢] . فهذه النصوص كلها تبين لنا ان معنى الحدس عند القدماء هو اصابة الحد الأوسط اذا وضع المطلوب ، أو اصابة الحد الأكبر اذا أصيب الأوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول . فهذا المعنى كما ترى يختلف بعض الشيء عن المعنى الذي تدل عليه كلمة حدس عند المحدثين . ولكننا نلاحظ ان للحدس عند كل من هؤلاء الفلاسفة معنى خاصاً . فهناك حدس عقلي كحدس البداهة ، وهناك حدس حسي وحدس نفسي ، وحدس فلسفي كالذي تكلم عنه (برغسون) . فاذا كان معنى الحدس مختلفاً باختلاف الفلاسفة ، فان اختلاف معناه في الفلسفة الحديثة عن معناه في الفلسفة العربية القديمة لا يمنع من اطلاق اللفظ نفسه على المعنيين . ولا حاجة الى البحث عن لفظ آخر كلفظ البداهة الذي اختاره بعضهم للدلالة على هذا المعنى لأن البداهة انما تقابل كلمة (Évidence) لا كلمة حدس . فيكفي اذن في هذه الحالة الاعتماد على اللفظ القديم مع تبديل وتحديد معناه تحديداً جديداً .

والقاعدة الثالثة : هي البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق العربي ، كأن تستعمل لفظ الشخصية للدلالة على (Personnalité) ولفظ الاستبطان للدلالة على (Introspection) ولفظ الاهتمام للدلالة على (Intérêt) ولفظ الانتحاء للدلالة على (Tropisme) ولفظ التكيف أو المؤالفة للدلالة على (Adaptation) . فهذه كلها اصطلاحات حديثة لم يستعملها القدماء ولكننا

---

(١) ابن سينا : النجاة ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ من طبعة القاهرة .
(٢) ابن سينا ، الاشارات ، ص ١٠٣ — ١٠٦ من الطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٢٥ .

نستعملها مطمئنين لأنها مطابقة للأصول التي وضعها أصحاب اللغة وهذا شبيه بما فعله القدماء من استعمال كلمة قوة للدلالة على (Puissance) وكلمة فعل للدلالة على (Acte) وكلمة صورة للدلالة على (Forme) ، وكلمة امكان للدلالة على (Possibilité) ، فقالوا ان الامكان في الشيء هو جواز اظهار ما في قوته الى الفعل ، وطبيعته بين الواجب والممتنع ، فاشتقوا من الامكان التمكين بمعنى اخراج الشيء من القوة الى الفعل بالارادة وقد يجيء التمكين عندهم بمعنى آخر وهو ان يكون تفعيلاً من المكان . فتقول مكنت الحجر في موضعه اذا وفيته حقه من بسط المكان وتسويته ليلزمه ولا يضطرب وليس في استعمالنا اليوم لفظ الحتمية (Déterminisme) والموضوعية (Objectivité) ، والوضعية (Positivisme) شطط ما دام القدماء من علمائنا لم يحجموا عن استعمال لفظ الهوية والأنية والصوفية وغيرها . ولكن اللغويين المحافظين منا لا يريدون ان يخرجوا من قفص المعاجم ، كأن الألفاظ التي اصطنعها علماؤنا القدماء في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات لم توضع الا اعتباطاً .

والقاعدة الرابعة : هي اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يصاغ صياغة عربية كقولنا (هرمية) في ترجمة (Hormique) وقولنا (الراد) في ترجمة (Radium) أو قولنا (المناد) في ترجمة (Monade) ، أو قولنا الديموقراطية في ترجمة (Démocratie) . ومن البديهي أنه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة الا عند عجزنا عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد . فاذا كانت كتب العلم القديمة لا تحتوي على لفظ نقتبسه كما هو او نبدله ، وكانت اللغة نفسها لا تشتمل على اسم قريب من المعنى نشتق منه فعلاً أو صفة كان استعمال اللفظ الأجنبي أوفى بالقصد وأقرب الى الوضوح من اطلاق لفظ عربي غير مألوف يفرض على العلم فرضاً . ان علماءنا القدماء لم يجدوا في استعمال كلمة فلسفة وكلمة

جغرافيا وكلمة كيمياء انتقاصاً من حقوق اللغة العربية ، فاذا استعملنا اليوم كلمة (فيزياء) للدلالة على (Physique) وكلمة ديموقراطية للدلالة على (Démocratie) فاننا لا نكون أقل منهم اصابة . فهم قد استعملوا كلمة البخت مع انه لا وجود لها في لغة العرب . يقول صاحب كتاب الهوامل والشوامل في الجواب عن احدى المسائل : «على اني رأيتك تستعفي أن تفهم حقيقة الا أن تكون في لفظ عربي . فان عدمت لغة العرب رغبت في العلوم ، لكننا أيدك الله لا نترك البحث عن المعاني في أي لغة كانت وبأي عبارة حصلت»[1] . وهذا القول يدلنا على أن القاعدة الرابعة التي ذكرناها هي السبيل الواضحة التي يجب سلوكها عند افتقار اللغة العربية الى لفظ أجنبي لا يُدل على المعنى الجديد الا به ، شأنها في ذلك شأن سائر اللغات التي تقتبس المعنى العلمي الجديد باللفظ الذي اختاره واضعه . فنقول مثلاً ميكرسكوب وتلسكوب كما نقول سينما وتلفزة دون أن نخل بلغة العرب لأن انتشار هذه الألفاظ على ألسنة الناس يجعل استعمالها في الكتب العلمية أوفى بالقصد من استعمال لفظ المكبرة والمنظار والصور المتحركة وغيرها . فالمعاني القائمة في الصدور كما يقول الجاحظ مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة[2] . وانما تحيا تلك المعاني في ذكر الناس لها ، واخبارهم عنها واستعمالهم اياها . ومهما يكن الاصطلاح العلمي وحشياً بعيداً عن المألوف فانه اذا انتشر على ألسنة الناس كان أحق بالترجيح من اللفظ الصحيح الذي لم يكتب له الانتشار . والخطأ المشهور كما قال بعضهم خير من الصحيح المهجور .

* * *

(١) الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ،ص: ١٠٤ ،القاهرة: ١٩٥١ .
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، الجزء الاول ، ص : ٦٨ .

هذه اربع قواعد ذكرناها هنا على سبيل الاشارة لا على سبيل الاحاطة ·
ولا نزعم أبداً أننا استقصينا بها جميع الصعوبات التي تعترض طريق المترجم ·
ان العلماء الأوربيين يعتمدون في وضع الاصطلاحات العلمية على اللاتينية
واليونانية · وفي وسعهم أن يؤلفوا كلمات مركبة من كلمتين أو أكثر أو ان
يضموا السوابق (Préfixes) او اللواحق (Suffixes) الى جذر المادة الأصلية
بحيث يتألف منها كلمات متشابهة دالة على معان متباينة · مثال ذلك ان
(Synthèse) و (Parenthèse) و (Antithèse) و (Hipothèse) تدل
على معان مختلفة مع أن جذرها الأصلي واحد ، أما الاشتقاق في اللغة العربية
فانه يغير الأصل الثلاثي بما يضيفه عليه من حروف الزيادة وليس في اللغة العربية
سوابق ولواحق مضافة على الأصل ، كما انه لا يمكننا الآن أن تستمد من غيرها
من اللغات القديمة ما تستمده اللغات الأوربية من اللاتينية واليونانية · وهذه صعوبة
أخرى يجب التغلب عليها بما امتازت به اللغة العربية من صحة المناهج ولطف
المخارج وسهولة الاشتقاق · وسنعود ان شاء الله الى بحث هذه الصعوبة الأخيرة
في مقال آخر ·

الدكتور جميل صليبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوضاع لغوية عسكرية

(Sentier) , (Ravin)

جاءني من حضرة مدير المجلة العسكرية بدمشق ما نصه :

نحار هنا في ترجمة (Sentier) فنحن نترجمها بكلمة (زَقيلة) كما وردت في القاموس المحيط ، أو (شُرَيْك) كما ترد على لسان الفلاحين والبدو عامة في بلادنا ، وقد جاءت كلمة (شَرَك) في القاموس المحيط ولكن بمعنى الطريق ذات الجواد ، فهل تكون (شُرَيْك) تصغيراً (لشَرَك) و (شريك) تصغيراً للتصغير فتكون صالحة لهذا المعنى ؟ أما مسلك فنحن نستعملها ترجمة لكلمة (Cheminement) الافرنسية والمقصود هو مطلق مسلك تسلكه طريقاً : كان ذا حدود أو لم يكن : تسلكه مثلاً خلف صف من الأشجار لتختفي به عن أنظار العدو ، و (درب) هل تصلح لمعنى (Sentier) أو لما هو أوسع ؟ وقد رأينا أن نترجم كلمة (Ravin) الافرنسية بكلمة (تَلْعة) العربية وقد جاء في القاموس المحيط ما يؤيد رأينا : وقد سمعت أنا شخصياً من الهجانة البدو النجديين وأنا معهم في الصحراء هذه الكلمة لهذا المعنى ، ومعنى (Ravin) هو مجرى الماء في سفح الجبل .

فهل لكم أن تتفضلوا فتفيدونا ما هي الترجمة الصحيحة لكل من تينك الكلمتين والشكر لكم ا ه .

وقد أجبت السائل المحترم بما يلي :

تضمن سؤالكم أمرين أصليين ، (الأول) كيف نترجم كلمة (Sentier) الافرنسية : قلتم في كتابكم انكم في حيرة بين أن تترجموها بكلمة (زَقيلة) العربية التي معناها : سكة ضيقة ، طريق ضيّق ، أو تترجموها بلفظ (شُرَيْك)

بتشديد الياء تصغير (شُرَيْك) الذي هو مصغر شَرَك. والشَرَك والشَرَكة بمعنى الطريق فيكون (الشُريّك) تصغير التصغير ويصبح معناه الطريق الضيق جداً وهو معنى (Sentier) وقد استأنستم الى صحة (شُرَيْك) بورودها (على لسان الفلاحين والبدو عامة في بلادنا السورية) ولعمري ان تخريجكم أو (إخراجكم) لكلمة (شُرَيْك) على هذه الصورة يدل على بصارتكم. ولكن هنا ملاحظات ينبغي إيرادها وربما أفاد التبسط فيها.

(أ) ما هو المعنى المطابق لكلمة (Sentier) ؟

يظهر من المعاجم الافرنسية أن معناها الطريق الضيّق (Chemin étroit) وسكتوا عن تقييده بوصف ما: فكل طريق ضيق سواء أكان في سهل أو جبل. طويل أو قصير. مستقل أو منشعب من احادة عظمى اسمى عندهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(Sentier) فيحسن اذن ان نترجم (Sentier) بكلمة عربية تفيد معنى (الطريق الضيق) ويحضرني من هذه الكلمات كلمة (الزَقيلة) التي ذكرتموها فقد فسّرت بالسكة الضيقة والطريق الضيق ولم يقيدوها بوصف ما فتكون هي المعنى الحقيقي المطابق لكلمة (Sentier) الافرنسية. وهي التي يحسن ترجمتها بها. غير ان (الزَقيلة) فيها غرابة وعليها سمة من استكراه في اللفظ. تقولون ان الاستعمال كفيل بصقلها وتقريبها من الأذواق. حسن ولكن يبقى هناك شك في عُروبتها من حيث أن صاحب القاموس انفرد بذكرها وقد أهملها كلٌّ من صاحبي الصحاح واللسان: فهي في الغالب لغة يمانية. لما أن الفيروزابادي (الذي انفرد بذكرها في قاموسه) كان قاضياً في اليمن في القرن الثامن الهجري فلعله التقطها من أفواه اليمانيين ودوّنها في معجمه. تقولون وهذا أيضاً لا يضر فان اليمن عربية ولغتها عربية فالشك في عروبة (زقيلة) مشكوك فيه بل مردود.

إذن (زقيلة) أصبحت في الكف ؟ وهل من كلمة غيرها تدل على معنى

الطريق الضيّق ؟ نعم كلمة زَقَب (بفتحتين) ففي الصحاح طريق (زَقَب) أي ضيّق . وقد يقال إنها غريبة مهجورة أيضاً كالزَّقيلة . والجواب ان الاستعمال كفيل بصقلها وتحليتها في الأذواق .

وهناك كلمة ثالثة ربما اخترتها ورجحتها على أختيها (الزَّقيلة والزَّقب) لسهولة لفظها واستئناس الناس بها ودلالتها على معنى الطريق الضيّق في العصور القديمة والحديثة : وهي كلمة (زقاق) قال الشاعر :

(ولم ترَ عيني مثلَ سِرْبٍ رأيته خرجن علينا من زقاق ابن واقف)

والسِرب من النساء كالسِرب من الظباء . فلنترجمْ (Sentier) بكلمة (زقاق) ولا سيما أن لها علاقةً قديمة بتاريخنا العربي وجغرافيتنا العربية : فأسلافنا العرب سموا بها المجاز الضيق بين طنجة وسبتة من برّ الأندلس . وهو الذي يسمى أحياناً (بحر الزقاق) وأحياناً (بوغاز جبل طارق) نسبة الى الفاتح العربي الشهير . فمزية (زقاق) على (زَقَب) و (زَقيلة) واضحة جلية . و (السكّة) بمعنى الزقاق أو هي الواسع من الأزقة . تقولون لكن (زقاق) أصبحت مبتذلة جداً . فلنتفق اذن على (زقيلة) لعروبتها وخفتها بخلاف (زَقَب) فان فتح قافها ومجيء الباء المقلقلة بعدها يُبعدها عن الأذواق . وفي استعمال كلمة (زقيلة) إحياء لها . وعلينا ذمة للغتنا وهي إحياء مواتها أي ألفاظها الميتة ما أمكن .

أما الشريك تصغير الشرك التي يستعملها الفلاحون بمعنى الطريق الضيق فاستعمال فيه نظر لأن (الشَرَك) ليس مفرداً بل هو جمع شركة وهي الجادة أي الطريق العظمى ففي الصحاح : (الشركة معظم الطريق ووسطه والجمع شَرَك) ومن اللغويين من فسّر (الشَرَك) بالطُرُق الصغار المنتشرة على متن الطريق الأعظم : فان المُشاة وحوافر الدواب تُحدث على ظهر الجادة طرائق قِدَداً وأخاديد صغيرة تتفرق ثم تلتقي ثم تتفرق ويكون بينها قطع من الأرض لا توطأ وتكون

ذات نبات أحياناً : فاذا نظرت الى هذه الجادة من عَلُ حسبتها عباءة مخططة . وقد جاء في اللغة : (بُرد مُسَيَّح أي مخطط والمُسَيَّح من الطُرُق المُبيِّن شَرَكه وإنما سيّحه (أي خططه) كثرةُ شَرَكه شُبِّه (أي الطريق) بالعباء المسيَّح) انتهى ملخصاً من اللسان . فالشركة إذن طريق ضيق لكن لا مُطلقاً بل يكون مع طرق صغار أخرى منتشرة جميعها على ظهر الطريق الأعظم . وربما كانت هذه الشَّركات هي التي تسمى في اللغة الترهات ايضاً ثم نقلت الترهات الى معنى الأباطيل مجازاً .

فاذا أردنا أن نترجم كلمة (الشُرَيك) مثلاً الى اللغة الافرنسية أمكننا أن نترجمها بكلمة (Sentier) ولكن لا يمكننا أن نترجم (Sentier) الى العربية بكلمة شَرَكة ولا بكلمة شريك كما لا يخفى .

وكلمة (درب) لا تصلح لأن نترجم بها (Sentier) لما أن الدرب اسم لمطلق طريق ضيقاً كان او واسعاً وربما كان معرباً عن الفارسية . ومن اللطائف ان (الردب) الذي هو مقلوب (درب) اسم للطريق الذي لا ينفذ كما في القاموس .

ومثل درب كلمة (مسلك) (Cheminement) فإنها في اللغة مطلق منفذ يُسلك منه الى ما وراءه معما ضاق المنفذ أو اتسع : فَثُرْم الإبرة مسلك للخيط كما أن أجواز الفضاء وأجواز البحار مسلك للطائرات والسفن الماخرات ومنه فنّ (سلك البحار) فمسلك اذن لا تصلح لترجمة (Sentier) .

بقي أنكم معشر رجال الفنّ العسكري إنما تريدون من (Sentier) في الغالب الطرُق التي يسلكها الجند وهي التي تكون في البراري والسهول المنبسطة لا في داخل المدن والقرى . فالذي يصلح عرضه عليكم من الألفاظ ما دلّ على مسالك الجنود في السهول : إذن يكون الزقاق والزنقة والزَّقب والشارع غير ما تطلبون . ويكون مطلوبكم هو الطريق . السبيل . النَّقْمُ .

النهج • المنهج • المنهَيَع • الجادّة • الدرْب • السكّة • المدعاس • والثلاثة الأخيرة تدل على الطريق الضيق ولا سيما المدعاس فقد فسروه بالطريق الذي أثر فيه طول دعس أقدام المارة • وهو الذي تسميه عامة زماننا طريق قادومية أي قدمية • فهذه الثلاثة إذن هي الصالحة لترجمة (Sentier) • والطرقات التي سردنا أسماءها تكون في بساط البرية وبعضها يستعمل في داخل المدن • كالجادة والدرب والسكة • أما طرقات أوعار الجبال فالمشهور من أسمائها الشِعب بكسر الشين وجمعه شعاب والجُدّة بضم الجيم جمعها جُدَد وهي الطرق تكون في الجبل يخالف لونها لونه : بيض وسود وحمر • ومنه الآية الكريمة : (جُدَدٌ بيض وحُمْر) وقولي إن الدرب يراد منه الطريق الضيق ملاحظ فيه غلبة استعمال سكان المدن له في هذا المعنى والا فان أصل معناه كل مدخل بين جبلين والباب الواسع والمسالك التي بلاد الروم ومنه قول امرئ القيس :

(بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه) الخ

(الأمر الثاني) أو السؤال الثاني كيف نترجم كلمة (Ravin) ؟

يجب أولاً أن نحدد معنى (Ravin) بالافرنسية : ففي لاروس ان معناها (مَسيلٌ حُفِر بواسطة جريان ماء المطر) • فقولكم في تفسيرها (مجرى الماء في سفح الجبل) تكون كلمة (سفح الجبل) زائدة على معناها الافرنسي إلا اذا كنتم جريتم على اصطلاح عسكري يُراد به : المجرى في السفح • ويعجبني في (Ravin) أن أترجمها بكلمة (غَبيب) قال في المخصص الغَبيب مَسيلٌ في متن الأرض أو الجبل • أما المسيل على ظهر السهل من الأرض فيسمى مسيل ومجرى وأخدود غير ملاحظ فيها اشتراط ان تكون في الجبل • ولا يمنع مانع أن تكون في الجبل أيضاً •

وإذ قد فهمنا من عبارتكم في ترجمة (Ravin) - إزاذة المسيل في الجبل •

واخترتم لها كلمة (تَلْعَة) فعلينا أن نوافي رغبتكم في ذلك فنقول : إن أقوال اللغويين في تفسير (التَّلْعَة) مختلفة بل متضاربة فهم يفسرونها تارةً بما علا من الأرض وتارةً بما انخفض منها وقال في المخصص (التَّلْعَة) ما انهبطَ من الأرض وتردَّد فيه السيل) ثم سموا الماء المتردِّد في الوادي تَلْعَة وجمعوه على تلاع . وفسروا التلاع بالسواقي الصغيرة تكون في الوادي .

هذه السواقي أو المجاري أو المسايل لا تكون على حالةٍ واحدة : فهي إذا كانت صغيرة سميت أمراش (جمع مَرْش) واذا كانت كبيرة سميت تِلاع (جمع تَلْعَة) واذا كانت أكبر من التلاع سميت مذانب (جمع مِذْنب) والأكبر من المذانب تسمى شواجن (جمع شاجنة) وما كان أكبر من الشواجن يسمى جلاويخ (جمع جلواخ) وكل مجرى منها اذا كان واسعاً يسمى (رِجْلَة) وجمعه (رِجَل) واذا كان ضيقاً سمي (قَرِيًّا) وجمعه (أقرِبة) والذي يشتمل على كل هذه المجاري المائية هو المسمى (بالوادي) . ولكنها أي تلك المجاري تكون طبيعية قديمة لا حديثة أوجدها اندفاع سيل المطر فان الحديثة على ما يظهر هو معنى كلمة (Ravin) . ويمكن القول بأن كلمة تَلْعَة لا بأس في أن نصطلح عليها ترجمةً لكلمة (Ravin) والذي يزيد في رواجها ما ذكرتموه من أن المجانة النجديين يستعملونها .

المغربي

الأتلنتدا هي اميركا الجنوبية

موضوع تاريخي جغرافي

ان وجود أرض فيما وراء بحر الظلمات ، كان موضوع بحث العالم القديم في القرون الوسطى ، فقد رويت أساطير وحكايات كثيرة في المناطق العامرة والجزر الكبيرة الزاهرة ، المنبثة في طول الاقيانوس وعرضه ، تلك الأماكن التي تعيش في أحراجها الكثيفة حيوانات غريبة وتخترقها الأنهر العظيمة والجبال الشاهقة الغنية بالمعادن والأحجار الكريمة النادرة التي لا تقل الأزهار العجيبة عنها روعة وجمالاً .

ولقد لاحظ المؤرخ هنري مارتن (1) في درسه كتاب تيميو – الذي ألفه أفلاطون بعد جمهوريته الشهيرة – الشيء الكثير من خرافة الاتلنتدا التي رواها كريسياس الطاغية الى سقراط ، فكانت هذه أولى الروايات النقلية عن هذه الجزيرة المجهولة ، أو بالحري حول القارة الواقعة وراء أعمدة هرقل ، وفيها ازدهرت قبل تسعة آلاف سنة مدنية شعب عظيم اشتهر بثقافته النهية ، في زمن سلالة اطلس (2) ابن الاله بوسيدون وزوجته الانسانة كليتو .

ونقل كهنة معبد سايس (3) هذه الحكاية الى الفيلسوف سولون فكانت روايتهم هذه بمثابة تعليم سري ، يتناقله منهم السلف عن الخلف ، الى ان لقنه المربي سيلينو (4) الى الملك ميداس (5) .

---

(١) هـ . مارتن Henri Martin (١٨١٠ — ١٨٨٥) .

(٢) Atlas ملك زمناً طويلاً جزيرة موريتانيا .

(٣) Sais عاصمة سلالة السيت في مصر Saites .

(٤) Sileno هو الذي تبنى الاله باخوس كما جاء في الأسطورة اليونانية .

(٥) Midas الملك ذواذني الحمار — حسب رواية الأساطير الرومانية

وأوضح كريسياس ما ورد في محاورات أفلاطون المشهورة ، ان شعب الأتلنتدا قوي ، امتد سلطانه الى مصر وبعد استيلائه على مقاطعات واسعة ، دحره الأثينيون في معركة دامية . واختفى أثره بين ليلة وضحاها ، حتى لم يعد يعرف عن شعب الأتلنتدا وعن بلادهم ومدنيتهم الزاهرة شيء. وذلك بعد طوفان هائل وزلازل شديدة مفجعة قضت على كل معالمهم وأخبارهم .

ونشأ عن هذه الروايات المنقولة ، الاعتقاد بأن أرخبيل اسورس وجزر الكناريـاس وبقية جزر الأنتليا تشكل جزءاً من الأتلنتدا المختفية التي هي سلسلة مرتفعات مغمورة بالمياه يصعب اكتشافها والتثبت من صحة ما يروى عنها .

أما بركلوس (١) الاسكندري فقد أخذ على عاتقه نقل آراء الكتاب المتناقضة حول الأتلنتدا فقال :

« ان Nomenius كان يعتبر الاتلنتدا رمز صراع بين الخير والشر » .

« و Amelius يعتقد ان الصراع بين الكواكب والنجوم قد انتهى بتهديم الجزيرة وخرابها السريع الهائل واختفائها العاجل » .

« واريجنس قال انها الحرب بين الأرواح الشريرة والصالحة » .

« واعتبرها لونجنيوس Longinus أسطورة كبقية الأساطير التي رواها أفلاطون لتجميل محاوراته المبهمة ، وجاراه بعدئذ كتبة ومؤرخون عديدون أمثال بلوتارخوس وسترابون وماركروبيوس وديونيسيوس دي متيلين وبلينو وبوميونيو ميلا وربودورو الصقلي ممن أوردوا في تواريخهم الشهيرة ذكر مناطق مجهولة واقعة خارج عالم البحر المتوسط الوضيع » .

فديونيسيو المتيليني قال : ان سكان الأتلنتدا كانوا أشداء وأذكياء وسماهم « اتلانديس ، واتلانيني واتارانيس » .

(١) Proclus : فيلسوف اسكندري (٤١٢ — ٤٨٥) .

«أما ريودوروا الصقلي فقد ألمع في تاريخه عن جزيرة ذات ثروة عظيمة اكتشفها الفنيقيون بعد إبحار أيام طويلة حول الشواطئ الافريقية، ربيعها دائم ومناخها عذب واخضرارها بديع جميل وأثمارها طازجة وزكية الطعم».

«وأرسطوطاليس الفيلسوف لم يغفل ذكر جزيرة عظيمة دعاها «انتيليا» ويقتضي للوصول اليها سفر عدة أسابيع من القارة التي يستعمرها الفنيقيون وعرفوا بحرصهم على ما يمتلكون كل الحرص، والويل لمن يلفظ اسم تلك الجزيرة بفمه أو يبوح بسرها».

«وأما الآثينيون فكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً بهذه الأساطير ويؤمنون بوجود الاتلنتدا، مع كل ما جاء عنها من الروايات المتناقضة والأقوال المتباينة».

ومن أخص الأساطير التي تناقلها الأثينيون قديماً تلك التي تتعلق بحروبهم ضد الأتلنتدبين، حتى انهم كانوا يقيمون في معابدهم احتفالات سنوية لتقديم ابتهالاتهم وتضرعاتهم فيها الى الإله باليس (١) لحميهم في حروبهم أعداءهم الاتلنتدبين.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

واعتبر كتبة اسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر، رواية ريودوروا الصقلي حقيقة بعد اكتشاف القارة الجديدة لمطابقة الأوصاف التي أوردها في تاريخه، ما في تلك القارة العجيبة من مناخ جيد ومناظر ساحرة.

وتأييداً للأساطير الرتيبة وغيرها من النصوص التي تقدم ذكرها من العالم الجديد نورد ترجمة نبوءة سنيكا الفيلسوف بهذا الصدد:

«تطوي الأجيال السنين الغابرة وفيها، يجمع البحر حوادث الدنيا فيظهر تل عظيم».

«ومنه تكشف بلاد جديدة ولن يكون هذا الحادث آخر ما يظهر للعالم».

(٢) Palès : الَه الجيوش والرعيان.

وكل هذه الأقاويل والروايات المشوقة كانت من العوامل الدائمة الى القيام برحلات طويلة خطرة في عرض البحار لاكتشاف عوالم خفية ، وأراض غنية ، قال عنها السليتون القدماء إنها كالجنان ، وأطلقوا عليها اسم البلاد الخالدة التي تقطنها الأرواح العليا .

وهكذا تجددت فكرة التفتيش عن تلك الجزيرة المجهولة ، الى أن أتيح للبرتقاليين والاسبان اكتشافها وبها تغنى كاموبس في ملحمته الشهيرة ، فقال في أنشودته الأولى :

في البحر أعاصير وخسائر ،
وفي الحرب حروب وخداع ،
فكم من رغبة تثير الملل ،
أين يمكن أن يلجأ انسان ضعيف ،
حيث لاتحنق ولا تغضب السماء الهادئة ،
على حشرة الأرض الصغيرة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فبعد اكتشاف الأميركات الثلاث صارت الاتلنتدا وحضارة القبائل الأميركية وثقافتها القديمة ، موضوع درس كثير من علماء الأثريات في أميركا . ومن أهم نواحي هذه الدروس ناحية المقابلة بين لغات القبائل الهندية المنتشرة في قارة أميركا ، من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي ، وبين لغة السومريين في ما بين النهرين ، ولغة المصريين القدماء وما بينها من التشابه خطاً ولفظاً مما يدل على أن مدنية السومريين الشهيرة قد وصلت الى أميركا ، ولكن كيف وصلت ، ومتى ؟

فلنبحث هذه القضية التاريخية ، والإجابة على السؤال المتقدم يقتضي أن ندرس العوامل الجغرافية والطبيعية التي تأثرت بها الأرض قديماً ، وما قاله بهذا الصدد علماء اللغة والآثار .

التقيت منذ ست سنوات على ضفاف نهر سان فرنسيسكو الشهير في أواسط البرازيل ، بالرحالة الألماني الدكتور اوتوفيلي اورخ وكان يدرس القبائل البرغوائية والبرازيلية المنتشرة على حدود الجمهوريتين في ولايات البرازيل الوسطى فاستحكمت بينه وبيني صداقة متينة ، وكنت وقتئذ أسافر الى هاتيك المناطق النائية للتفتيش عن مواد أولية ومعادن ، فآنست في نفسي هوى لاستطلاع بعض دروس هذا المستكشف فأقمت مع بعثته وقتاً اطلعت فيه على لمحة صغيرة من أبحاثه ، وتنقلاته ومقابلاته ، بين لغات القبائل البرغوائية ، التي كان يجيد التكلم بها — وهي لغة الغوراني والتوبي — وبين اللغة المصرية القديمة . وكان يردد أبداً قوله : « ان مدنية قبائل أميركا الوسطى ترجع الى المصريين ، والدليل على ذلك آثار متعددة واضحة . أما حضارة القبائل في أميركا الجنوبية فمختلفة المصادر » .

وبعد سنتين من هذه المقابلة كنت أجتاز حرجاً في شمالي ولاية منياس على مقربة من قرية فورنليزا ، ووجهتي مناجم البلور الطبيعي في هضبة سان جوزه دي غورتوبا فلقيني صاحب المنجم وقال لي : « سترى على باب المنجم كتابة غريبة ، وأعتقد كما يعتقد غيري أنها كتابة هيروغليفية أو فينيقية أو غير ذلك » . فعادت الى ذاكرتي أحاديث العلامة أورخ ونظريته في الآثار الكتابية التي خلفتها القبائل الهندية في الأميركتين الوسطى والجنوبية .

وجدت خطاً بشرياً محفوراً في صخر الى جانب مجرى ماء ، ومطلياً بدهان أحمر وقاه أفاعيل الأمطار والعوامل الطبيعية فبقي على روائه ، كما لو كان حديث الحفر والطلي ، وقد حاولت حك الصباغ بآلة حادة فلم أفلح فصورت الصخر ورسمت الأحرف رسماً دقيقاً واحتفظت بها حتى الآن .

ومرت الأيام وأنا أقوم برحلاتي الشاقة في مجاهل البرازيل مقتحماً أدغالها وأحراجها ، طلباً للمعادن والأحجار شبه الكريمة مرددا ما قاله الشاعر الثائر اليأس فرحات :

شرق وغرب فقد يغنى أخو سفر عن كل ما تجمع الأسفار من حكم
والمرء لا يرتقي مهما تلا كتباً الا اذا احتك بالأفراد والأمم

الى أن بلغتُ ذات يوم هضبة تدعى سيرادى كايابو قائمة الى جانب نهر اراغوايا الشهير عند التخوم التي تفصل بين ولايتي غواياز وماتوغروسو في مزرعة غنية بالمعادن ، وهناك وجدت رسماً محفوراً في صخر أيضاً والى جانبه مجرى ماء وبعض أنجم متكاثفة ، ومن المدهش ان الرسم المطلي بصباغ أحمر زاه لا يؤثر فيه الحك .

وهكذا كنت ألاحظ كل ما هو غريب في المناطق النائية عن العمران ، من آثار حجرية أو كتابات أو رسوم محفورة ، لم تقو يد الطبيعة على محوها على مر الزمان ، وقد حفظت في مجموعتي عدداً وافراً منها .

لقد ابتدأت أبحاث البرازيليين وفي طليعتهم برغ نيوفيدال ، على أثر ادلاء الأب هليودورو بيرمي بنظريته : « ان اميركا هي الأتلنتدا بذاتها » أي أن الجزيرة العظيمة التي ذكرها بلاطون الفيلسوف وهيرودتو من المؤرخين الأقدمين . وان الاميركات قد احتفظت بكل ما دون في الأساطير الأولية ، وانتقل بالرواية عن الاتلنتدا ، وانه اذا أرهف الانسان سمعه ووعى اللغات الهندية وألفاظها ولهجاتها المتعددة تأكد لدى فهمها أنها لا تختلف البتة عن لغة السومريين القدماء ، وقد حافظت هذه اللغة على تسمية المواقع الخطيرة والجبال والأنهر والهضاب وأسماء الأعلام كما تسمت بها القبائل المتعددة ، وأخصها قبيلة الانقا في ولاية براهيبا دو نورثي من أعمال البرازيل ، تلك القبيلة الكبيرة التي خلفت بين ما خلفته من الآثار الكتابات المنقوشة على الصخور الضخمة لكي يراها الرحالة ويشاهدها كل من أراد التعمق في درس هذه المخلفات التاريخية والأثرية واللغوية .

ويقول فيدال : « أين مدنية هنود أميركا من مدنية وحضارة السومريين أجدادهم القدماء ؟ ويستند في تحليله الى اختبارات ودروس عدد من العلماء

لأثريين واللغويين كالأب براسيردى بوربورغ والمستشرق الأب هلاربو دي بارنتون ، والى التاريخ العام الذي وضعه العلامة الألماني فايس كما يستند الى ما جاء في المعلمة العالمية الاسبانية عن التاريخ والآثار الأميركية والى ماصرح به العلامة البرازيلي ليونسيو دي امارال غورجل سنة ١٩٠٧ في درس قدمه الى المعهد التاريخي الجغرافي في سان باولو جاء فيه :

« لا يسعني الا أن أجاهر باعتقادي الراسخ وهو أن أجزاء العالم كانت فيما مضى متحدة ، وان الاتلنتدا التي يزعم بعضهم أن المياه قد غمرتها على أثر كارثة عظيمة ، لم تكن سوى أميركا التي انفصلت عن العالم القديم وابتعدت عن أوربا وافريقيا ، ودخلت في طور الأساطير والخرافات » .

أميركا قبل التاريخ :

لقد مرّ على العالم ٦٧ قرناً قبل اكتشاف اميركا سنة ١٥٠٠ بعد أن كانت هذه القارة المترامية الأطراف ، في عالم المجهول ، بينما كانت بقية القارات تسير في معارج العمران والحضارة والمدنية .

ومن المتحتم في هذا الباب مراجعة تقارير العلوم الطبيعية ، ودرس التوراة وبعض نصوصها التاريخية والميثولوجية لكشف النقاب عن هذا المجهول .

ومن ينظر في تواريخ الأمم يرى أن شعوباً كثيرة كانت ذات شأن في تلك الأزمنة كالبابليين والمصريين والهنود وغيرهم ونقشت أسماء أمرهم الملكية على الأنصاب والأعمدة وفي الهياكل الأثرية القديمة . وكل هذه التواريخ والحوادث جرت قبل المسيح ، والعلم يرجع بعضها الى عشرات الألوف من السنين وأكثر . واذا عدنا الى ألفي سنة أو ثلاثة آلاف سنة ، عندما بدأت الأسر الملكية في مصر وبابل تتعاقب على الحكم أبدت لنا المقابلة أن آثار المكسيك تحتفظ بأمثلة متعددة تشير الى ان سنة ١٧٨٦ بعد خلق العالم (حسب ميثولوجية

التوراة) شهدت انهطال أمطار غزيرة فأدت الى الطوفان الذي غمر الأرض • وتدل الكتابات التي عثر عليها في المكسيك انه في السنة ٥٢١ بعد هذا الطوفان تأسست مدينة تاباتان أولى المدن المكسيكية • ويقول البحاثة موتيسينوس بهذا الصدد « ان مقاطعة بيرو قد ازدهرت بالسكان والعمران في السنة الستمائة بعد الطوفان » •

وبموجب تقدير قبائل الأزتكاس Azteccas يرجع خلق العالم الى عشرين قرناً قبل الطوفان العام •

وقد انتقلت هذه النظرية الى المكسيك من المايا وسموها تاناثيوه Tanateua ومنها يستدل على الحقبات الأربع التي انتهت بحوادث الطوفان •

فالدور الأول قد انتهى بالزلازل والفاقة ، لأن الأرض لم تنتج ما يكفي سكانها من الغذاء ، وانتهى الدور الثاني بالنار الآكلة التي أرسلتها الآلهة على الأرض فدمرتها • وامتاز الدور الثالث بما اجتاح الأرض من الأعاصير المقوضة • وأما الدور الرابع فكان دور الانغمار بالطوفان •

وفي غضون هذه الأدوار الأربعة كانت القارة الأمريكية متصلة بالعالم القديم فما هو الحادث الذي فصلها عنه ؟ وفي أي زمن جرى ؟

جاء في التوراة (الاصحاح ١٠ — ع ٢٥) : « ولعابر ولد ابنان : اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت الأرض ، واسم أخيه يقطان » وكلمة فالج العبرانية تعني بالعربية فالق من فلق أي قسم الى شطرين ، واليهود يقولون عن قسمة الأرض بلغتهم Ki Beyamayò niphelegàh hà Éres « •

والكلمة الثالثة فعل ترجمته باليونانية « Diemeristhé hé Gèpaleg » ومعناه ان الأرض قد شطرت او انقسمت بشدة • فانقسم Pal والارض Eg ، وفي لغة السومريين تجد اللفظ والمعنى عينهما •

وجاء في الاصحاح العاشر عده من (سفر التكوين) ان الأمم قد تفرقت في كل الأرض بعد الطوفان وبعد انقسام الأرض الى أقسام متعددة ، واليها تفرق أبناء نوح بعد الطوفان فمتى حدث ذلك ؟

ولد فالج أو فالق سنة ٤٠٠ للخليقة والطوفان حدث سنة ٢٢٤٧ بعد خلق آدم و ٢٩٥٢ قبل ولادة المسيح . وعلى هذا الأساس يكون حدوث انفصال القارات بعضها عن البعض الآخر قد وقع سنة ٢٦٥٠ بعد آدم او ٢٥٥٢ ق . م . أي قبل عصرنا الحاضر بـ ٢٥ قرناً ، وقد تفرقت الأمم من شنعار الى أقاصي الارض حوالي القرن الواقع بين ٢٨٠٠ و ٢٧٠٠ ق . أي خلال مدة قرن أو قرنين قبل انقسام الأرض حينما تفرق في أجزائها أبناء نوح ، وعاصروا الحادث التاريخي الذي حصل وكان من نتائجه انفصال القارات المتعددة بعضها عن البعض الآخر ، وبينها القارة الأميركية التي أخذت في الابتعاد عن أوربا وافريقية تدريجياً فكان أول انزلاقها حتى درجة العرض من جزر الكناريا ، وبقيت ثابتة على هذا الوضع ما يزيد على اثني عشر الى خمسة عشر قرناً وعرف الأقدمون ، وفي طليعتهم اليونان ، بجزيرة الأتلنتدا ، ويقول البحاثة فيدال أنها عرفت بأرض أبناء آرام وبعدئذ بأمريكا

واذا نحن أمعنا النظر في هندسة كل قارة على حدة رأينا أولاً ان حدود افريقية حتى التجويف الذي يلي خط الاستواء تلتئم مع التقعس المشاهد في تكوين أميركا الجنوبية على موازاة الدرجة ذاتها . واثباتاً لذلك نرى أيضاً ان كل ما في القارة الأميركية من حيوان ونبات ، يؤيد نظرية انفصال هذه القارة عن الشرق ، وقد عثر الأثريون في بيرو على عظام حيوانات متحجرة منها الأسود مثلاً والمعلوم أن الأسد انقرض من القارات الأمريكية منذ قرون ولم يبق له أثر ، وهو لا يزال كثيراً في افريقية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حلت بالأرض كوارث طبيعية ذات أثر بعيد ، فغمرتها الثلوج والجليد ، وعرتها زلازل عبثت بوحدة تكوينها فانفلقت وانفتحت فيها حفر وأخاديد عميقة وشقوق واسعة ، غمرها ذوب الثلوج والجليد ، وهكذا نرى أن الأماكن المرتفعة عن سطح المياه بقيت متصلة ولكن حيث بعد مدى انفراج الأخاديد كان الانفصال بالغاً .

واذا نحن حللنا كلمة Okéanos التي أطلقت على البحار الكبيرة التي تفصل بين القارات وجدنا معناهـا واضحاً في لغة السومريين فمعنى (O) ماء البحر و (Ki) الأرض ، و (A) مجرى او نحو و (Nu) يحيط .

وعلم اللغة يحدد كلمة Oceano كما يعرفها اليونان Okeanos « Ho Perrireòn tèn Oikumenèn »

ومعناها : النهر الذي تجري مياهه حول الأراضي المأهولة » .

وانزلاق القارة الأميركية وابتعادها عن القارات الأخرى قد حصل تدريجياً ، وهذا ما تؤيده نظرية العالم الألماني الفريد وجينيس Alfred Wegenes القائل بانفصال القارات بعد أن كانت متصلة بأفريقية الحالية ، فحركة دوران الأرض وقوة الجاذبية والتيارات الأوقيانوسية المتتالية ، الى ما سوى ذلك من القوى التي تعمل على تفكك الكتلة الأرضية كانت عوامل بل أسباباً طبيعية لانفصال أميركا وابتعادها غرباً وتكون الأوقيانوس الأتلنتيكي بحيث شغل المكان الذي كانت قبلاً تشغله أرض أميركا . وما حصل لأميركا حدث أيضاً لأوستراليا والقطبين الشمالي والجنوبي .

وليس تمدن قبائل المكسيك القديمة وقبائل اوتومبس وناحواس وآزتكا والمايا وكينشز ومويسكا والانكا وايرا وشيموس سوى استئناف لمدنية الشعوب الأولية التي قطنت الأتلنتدا . وما هذه الأتلنتدا العجيبة سوى أميركا التي ابتعدت عن جزر الكناريا‌س .

والخطط الذي وضعه سيباستيان مونستر سنة ١٥٤٠ يتضمن أميركا ويشير اليها بالاسم الذي كانت معروفة به في ذلك العصر وهو Nouus Orbis وفي وسط مخطط أميركا الجنوبية تقرأ هذه العبارة : «جزيرة اتلنتكا «Jusula Atlantica, Quam Vocant Brasilii et Americam ·

ومعناها : ان الاتلنتدا هي أميركا بما فيها البرازيل ·

* * *

الخلاصة :

يستدل من المعلومات المتقدمة ان هجرة أبناء الشرق من السوريين والمصريين وسواهم من القبائل المتعددة قد انتهت الى اميركا ، وفيها أبدعت مدنية لم تختلف في أول أمرها عن مدنية الأمم القديمة ، غير انه بانقطاع سبيل الهجرة أخذت تلك المدنية تتقهقر تدريجياً وخمد نشاط أولئك المغتربين وضؤل ذكاؤهم حتى انتهى أمرهم الى التوحش والتأخر ولا يزال هذا حالهم الى يومنا هذا · ا هـ ·

جورج لباده

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

سفر خالد بن الوليد

من العراق الى الشام

– ٣ –

تفضيل الروايات :

نبدأ أولاً بالروايات التي زعمت أن خالداً دخل الشام عن طريق تدمر وقد اعتمد عليها كايتاني ودي خويه كما سبق بيانه ·

أولاً – رواية الواقدي وفيها أن خالداً خرج من سوى الى الكوائل وأتى بعد ذلك قرقيسيا وأرك ، ثم دومة الجندل فقصم فالقريتين فحوارين حتى بلغ مرج رهط والكوائل كما أثبته موسل في خريطته محل ماء واقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً غربي ، جنوبي غربي (الميادين) أما قرقيسيا فهي مدينة قديمة واقعة على ضفة الفرات اليسرى في مصب الخابور وذهب موسل الى ان قصم في (خان المنقورة) على طريق (تدمر – دمشق) الروماني على بعد ستين كيلومتراً شرقي ، شمالي شرقي ضمير · وهي Casama الرومانية · وذكرها بوادييارد في خريطة المواقع الرومانية في بادية الشام ، بقرية النبك [1] على طريق (حمص – دمشق) الروماني · وقصبة النبك واقعة في منتصف الطريق بين حمص ودمشق · وذكر دوسو أيضاً في كتابه « طبوغرافية سورية التأريخية القديمة والوسطى » في صفحات ٦٤ : ٦٦ ان Casama هي قصبة النبك وأثبتها في الخريطة المربوطة بكتابه [2] ·

---

(١) المجلد الثاني لكتاب (آثار روماني في بادية الشام) يتضمن الخرائط والرسوم والصور.

Topographie Historique de La Syrie, Par René Dussaud, 1927. (٢)

لهذا ينبغي أن نعتبر قصمة أو قصم القصبة الحالية نبك على ما ذهب اليه الكاتبان الفرنسيان الاخصائيان · أما موقع أرك فقد ذكرها ياقوت في معجمه وقال هي مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر وهي من فتوح خالد ابن الوليد عند ما سار من العراق الى الشام · وهي (ورك) الحالية و (Harac) الرومانية في شمالي شرقي تدمر على بعد خمسين كيلومتراً على الطريق الروماني القديم بين تدمر والرصافة · وكان فيها حصن روماني لحراسة الحدود ·

ولنبحث الآن في رواية الواقدي ولنتحقق من صحتها · قال الواقدي ان خالداً خرج من سوى الى الكواثل والمسافة بينها خطاً مائتان وخمسون كيلومتراً · والمسافة بين الكواثل وقرقيسيا ثلاثون كيلومتراً · واذا صدقنا الرواية فيكون خالد قد شرق من سوى الى قرقيسيا وبها بلغ ضفة الفرات ، ثم توجه غرباً الى أرك والمسافة بينها خطاً مائة وخمسة وثمانون كيلومتراً · وذهب من أرك الى دومة الجندل والمسافة بينها خطاً خمسمائة وخمسون كيلومتراً ، هذا اذا فرضنا انه توجه الى دومة الجندل رأساً ، متوجهاً نحو الجنوب قاطعاً البادية · وزعم الواقدي ان خالداً سار من دومة الجندل الى قصم والمسافة بينها خطاً أكثر من خمسمائة كيلومتر · ولم يذهب من قصم الى مرج راهط رأساً بل توجه شرقاً الى القريتين ثم عرج على حوارين وانتهى أخيراً الى مرج راهط · والمحل هذا واقع قريباً من قرية عذراء أو عدرا الحالية على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً شمالي ، شرقي شمالي دمشق · ويبدو من المسافات التي ذكرناها ان خالداً بعد تفويزه الى سوى وقد قرب من دمشق نحواً من مائة وخمسين كيلومتراً وبلغ حدود الشام شرق وغرب ونزل جنوباً وصعد شمالاً · وبذلك قطع أكثر من الف وخمسمائة كيلومتر على أقل تقدير يضاف الى ذلك المدة التي قضاها في القتال والحصار والفتح وعقد الصلح وغير ذلك من الأعمال · وقضى هذا الوقت الطويل مشرقاً ومغرباً تاركاً هدفه الأصلي وهو الاجتماع بالمسلمين في

الشام ، قبل أن يهاجمهم الروم بجموعهم · والذي يدرس الرواية على الخريطة ويثبت الأماكن يتجلى له ان رواة الواقدي حشروا في رواياتهم فتوحاً تمت على يد خالد قبل سفره من العراق وفتوحات أخرى تمت بعد انضمامه الى المسلمين واشتراكه معهم في الحروب التي وقعت سنة ثلاث عشرة هجرية · ومن المعقول أن يتوجه خالد ، بعد وصوله الى سوى ، قاصداً الى الشام ويلاقي جمع غسان في مرج راهط · لهذا اذا نقحنا الرواية من أعمال خالد قبل سفره وأعماله بعد حروبه في الشام ، تطابق الرواية الواقع وتدل على أنه خرج من سوى وتوجه الى مرج راهط ·

ثانياً رواية المدائني : روى المدائني أن خالداً بعد أخذه أمر ابي بكر بالشخوص الى الشام توجه الى صندوداء فقاتل من فيها ، ثم لقي جمعاً في المصيخ والحصيد ثم نوز من قراقر الى سوى ، ثم أتى أوك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم حتى انتهى الى مرج راهط · وهو في طريقه هذا يقاتل ويحاصر ويصالح · وبديهي أن الذي يقرأ هذه الرواية ولا يعلم محل قراقر وسوى يظن أن خالداً سار الى الشام على ضفة الفرات اليمنى ، من ناحية البادية أي طريق القوافل من الأنبار الى السخنة فأرك ، فتدمر ، فحوارين ، فقصم وانتهى الى مرج راهط وهذه الطريق طويلة وتكثر فيها المياه ·

ولنثبت المواقع التي وردت في رواية المدائني · أما صندوداء ولم يثبتها ياقوت واكتفى بذكر الوقعة ، فقال ان خالداً سار يريد الشام فأتى صندوداء وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتلهم · وثبت موسل صندوداء في محل المشهد الحالي الواقع شرقي الرمادي على بعد خمسة كيلومترات وذكر ابن منقذ في كتابه الاعتبار انها كانت ضاحية من ضواحي الأنبار وذكر كتاب المراصد انها في الضفة الغربية للفرات في أعلى الأنبار ·

لم تضبط المعاجم والتقاويم المصّيخ والحُصيد وذكر ياقوت ان المصيخ بين حوران والقلت ، وحوران هذا هو وادي حوران الذي يجري من بادية الشام ويصب في نهر الفرات بين جُبّة وآلوس . وأضاف الى ذلك مُصّيخ بهراء فقال ان خالداً ورده بعد سوى . وذكر عن الحصيد انه موضع بأطراف العراق من جهة الجزيرة . وقال نصر إنه واد بين الكوفة والشام . ولكن موسل استند الى رواية سيف بن عمر الباحث عن فتوح خالد في الفرات الأوسط قبل بلوغه الشام والتي اعتبرها موثوقة لأنها تدل بجملتها على أن رواة سيف كانوا عالمين بجغرافية البلاد حق المعرفة .

ذكر موسل انه لم يجد المصيخ ولكنه ثبت موقع القلت وهو واد صغير يسمى الآن (ابو قلته) يلتقي بالفرات جنوبي هيت . والطريق بين عين التمر والسخنة يقطعه . وما دام موقع المصيخ بين القلت ووادي حوران كما أشار ياقوت أي على الطريق التي سار فيها خالد قبل التقائه بجموع تغلب في المصيخ ، فينبغي ان يكون على هذا الطريق . قال موسل انه لم يجد محلاً باسم المصيخ ولكنه وجد محلاً فيه ماء كثير ، يسمى الآن (عين الأرنب) وكان المحل هذا لقبيلة نمر ورد ذكره في الأغاني[1] . لم يثبت موسل موقع الحصيد ويظهر من رواية سيف التي عرضت لغزوات خالد بين الأنبار وجبل البِشْر أنه أقرب الى عين التمر منه الى المصيخ ، لهذا ينبغي ان يكون شمالي عين التمر وجنوبي القلت .

واذا ما درست رواية المدائني بعد تثبت موقعي صندوداء والمصيخ يتضح ان خالداً لما أخذ أمر ابي بكر لم يتوجه من عين التمر رأساً الى الشام وتوجه أولاً الى صندوداء فقاتل من تجمع فيها ، ثم توجه الى الحصيد والمصيخ ولقي جمع تغلب وغيرهم فيها وتغلب عليهم ، ثم غير وجهته وذهب الى قراقر ففوز الى سوى .

(١) البادية العربية ص (٣١٠) Arabia Dezerta .

لماذا يتوجه خالد من عين التمر الى صندوداء وقد أراده ابو بكر على الشخوص الى الشام فقطع مسافة تسعين كيلومتراً ؟ ثم توجه الى المصيخ والمسافة بينه وبين صندوداء مائة وخمسون كيلومتراً ، لأنه مر بيردان والحنى كما ذكره سيف بن عمر ؟ والطريق الى المصيخ يمر بهما . والمعقول أن يتوجه خالد من عين التمر تواً الى قراقر ، ما لم تبلغه أمور تستدعي حضوره الى صندوداء ورأى انه لا بد من البت فيها قبل السفر . والمسافة بين المصيخ وقراقر خطاً نحو من اربعمائة كيلومتر . واذا وقع هذا فعلاً فإن شخوصه الى أرك بعد تفويزه من قراقر الى سوى لا يمكن قبوله على ما أشرنا الى ذلك حين نقد رواية الواقدي . لهذا ينبغي أن تعتبر أعمال خالد في صندوداء والحصيد والمصيخ أعمالاً قام بها قبل استلامه أمر ابي بكر بالسفر الى الشام . أما أعماله في أرك وتدمر والقريتين وحوارين وقصم فلا بد أنها وقعت بعد انضمامه الى جيش المسلمين وفتح بصرى وأجنادين .

ويفهم من كل ما ذكرناه آنفاً ان زعم القائلين ان خالد بن الوليد شخص من العراق الى الشام عن طريق (أرك ـ تدمر ـ القريتين ـ حوارين) زعم خاطئ .

واذا نظر المرء خريطة مواقع الرومان في بادية الشام والمصورات التي وضعها مؤلف كتاب طبوغرافية سورية في القرون القديمة والقرون الوسطى يرى أن أماكن الحصون والقلاع والمخافر التي أقامها الرومان على ذلك الطريق من الفراض الى دمشق منتشرة في شمال الطريق الروماني والى جنوبه وتكاد لا توجد قرية أو بئر الا وعليه حصن أو معقل أو مخفر . صحيح أن الروم كانوا قبل الفتوحات العربية قد تغلبوا على الفرس بقيادة الامبراطور هرقل وانهم لم يعودوا يخشون بأس الفرس ولا سيما وكانت فارس وقتئذ تموج بثورات داخلية وانقلابات ؛ غير ان قبائل تغلب المعادية من جهة ، وسعي الأهلين الى الدفاع عن أموالهم وماشيتهم وامداد الروم لهم من المراكز العسكرية الخطيرة كالفراض

وتدمر والرصافة من جهة أخرى لا تدعو خالداً الى المجازفة بقوته القليلة بالسير في تلك الطريق . يضاف الى ذلك أن قبائل تغلب كانت تستطيع دائماً ، كما أشار موسل ، أن تطمر الآبار في طريق خالد وتفسد ماءها .

وكيف ينسنى لخالد أن يجتاز أرضاً معادية له في سفره من الأنبار الى تدمر والمسافة بينهما خمسمائة كيلومتر ؟ واذا لم يسلك الطريق البعيدة عن ضفة الفرات ، فينبغي له أن يمر بوادي الفرات ويصطدم بالقرى المحصنة ، ويبدو من رواية الواقدي انه لم يجرؤ على مقابلة من تجمع من أهل قرقيسا بقيادة بطريقها فتركهم وانحاز الى البر . هكذا يتضح مما ذكرناه آنفاً ان الأعمال التي قام بها خالد والتي حدثت في أماكن بعيدة عن طريق سفره الى الشام سواء أكانت طريق (الحيرة ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) أم طريق (عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) ما هي الا فتوحات وقعت قبل سفره أو بعد سفره . وقدمنا القول ان الطرق التي تقطع بادية الشام من الشرق الى الغرب لا يصح الركون اليها في سفر خالد لأن مياهها قليلة لا تستطيع الخيل أن تسير فيها .

ARCHIVE http://Archive.beta.sakhrit.com

السبب الذي حدا بخالد على التفويز :

أي الطريقين سلكهما خالد ؟ طريق (الحيرة أو عين التمر ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) او طريق (الحيرة او عين التمر ـ دومة الجندل ـ قراقر ـ سوى ـ مرج راهط) . وما هو السبب الذي حمل خالداً ، بعد بلوغه قراقر ، أن يفوز الى سوى بدلاً من ان يسير في طريق القوافل المارة بوادي السر ، التي تنتهي ببصرى أو بأذرعات ؟

روى ابن اسحق أن خالداً أخذ كتاب ابي بكر في الحيرة فتوجه الى عين التمر ومنها سار الى قراقر ففوز الى سوى ثم توجه الى مرج راهط . لم يذكر ابن اسحق المنازل التي نزل بهـا خالد بين عين التمر وقراقر . ترى هل سار

بطريق (عين التمر - الأخدمية - الخفية - اخاط - قراقر) التي ذكرها ابن خرداذبه وثبتها موسل بالأسماء الشائعة الآن ، أي (عين التمر - شعيب الخدّمية - غدير الخليط - خفابة لاهة - قراقر) ؛ ام انه سار بطريق (الحيرة - الرهيمة - البخيت - القراي - الخنفس - الحُسية - الغرنقة - القراقر) ، وقد ثبته موسل بالاسماء الشائعة كما يلي : (الرهيمة - البرْبت - غدير الغرابي - عمارة الخنفس - بريكة أم أخنـيبة) .

أما الطريق الأول وهو الطريق الشمالي فلا يختلف كثيراً عن الطرق الشمالية الأخرى التي تقطع البادية من الشرق الى الغرب لأن الماء فيها قليل لا يتأتى لقافلة كبيرة أن تسير عليها ، لا سيما اذا كان فيها خيل . أما الطريق الثانية فمع أنها أحسن من الطريق الأولى فلا يحتمل ان خالداً سلكها . ولو لم يذكر سيف بن عمر والواقدي وموسى بن عقبة ومصعب بن عبد الله في رواياتهم ان خالد بن الوليد مر بدومة الجندل لجاز لنا ان نميل الى أن خالداً سلكها . وقد أيد موسل ان الماء مفقود فيها في مسافة أربعمائة وخمسين كيلومتراً أي من ألبرْبت الى قراقر ، لهذا من المستبعد جداً ان يمر بها خالد والموسم كما سيتضح لنا بعد حين ، ليس موسم امطار . اذن لم يبق الآ طريق (الحيرة - دومة الجندل - قراقر - سوى - مرج راهط) والقسم الأول منه الى قراقر تسير فيه القوافل وفي منازله مياه كثيرة في الآبار والبركات الكبيرة . انه طريق طويل ولكنه امين .

قلنا ان ابن اسحق لم يذكر في روايته المراحل بين عين التمر وقراقر ويدل هذا السكوت على ان خالداً مر بالطريق العادية اي طريق (الحيرة - دومة الجندل - قراقر) بحيث لم ير الرواة حاجة لذكر المنازل لأنه لم يحدث فيه احداث من قتال او فقدان ماء مما يستدعي ان تبقى محفوظة في محفوظ الرواة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فينقلوها ولا سيما اذا اعتبرنا ان فتح عين التمر الذي ذكره ابن اسحق تمّ قبل ان اخذ خالد كتاب ابي بكر بالسفر الى الشام ·

وهذه الطريق تبدأ من الحيرة مارة بالرهيمة والقرعاء ووقصة وحبكة والصوير وسكاكة والقارة وتنتهي بدومة الجندل ، ثم تمر بوادي السر الى قراقر · والقرى والمياه موفورة في الوادي الذي يعد من الواحات المشهورة في بادية الشام لكثرة المياه فيه · وتبلغ المسافة من الحيرة الى قراقر أكثر من ستمائة وخمسين كيلومتراً ·

ما هو السبب الذي حدا بخالد على ان يترك الجادة بين دومة الجندل وبصرى وهو الطريق الممتدة نحو الشمال الغربي وينحرف من قراقر الى الاتجاه الشمالي ويفوز الى سوى في ارض : « اذا ما سار فيها الجيش بكى ما سار فيها من قبل إنسي يرى »

ويبدو من رواية ابن اسحق ان الدليل (رافع) حذّر خالداً من اجتياز هذه المفازة وقال له : « انك لم تطق ذلك بالخيل والأثقال · والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغوزاً ؛ انها خمس ليال جياد ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها · » · وعلى الرغم من تحذير رافع هذا لخالد فانه أصرّ على رأيه · ويتضح من رواية سيف بن عمر ان رجال خالد بعد ما سمعوا أقوال رافع ترددوا ، الى أن قام خالد بهم خطيباً ، مشحذاً لهمتهم · لم يذكر ابن اسحق سبب انحراف خالد عن الجادة ولكن سيف بن عمر ذكره بقوله ان خالداً كان يريد طريقاً يخرج به وراء الروم ولا يريد ان يستقبلهم فيمنعونه من غياث المسلمين ·

لا نعلم على وجه الصحة المواقع التي كان المسلمون مجتمعين فيها في الشام أثناء سفر خالد · والذي أثبتته الروايات ان خالد بن الوليد لما خرج من مرج راهط وانتهى الى قناة بصرى التقى بالمسلمين فيها · واختلفت الروايات فيمن كان

حاضراً في بصرى . فابن اسحق روى ان اباعبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن ابي سفيان كانوا على بصرى . اما رواية سيف بن عمر فتنص على ان خالد بن الوليد ، وحده فتح بصرى . ولم يذكر الواقدي من كان من المسلمين في بصرى واكتفى بأن قال انه قيل ان خالداً أتى الجابية وبها ابوعبيدة في جماعة ، فالتقيا ومضيا جميعاً الى بصرى . وأما المدائني فتنتهي روايته بوصول خالد الى مرج راهط ، وروى موسى بن عقبة ان خالداً قدم الشام وبه يومئذٍ ابوعبيدة . واكتفى اليعقوبي بقوله ان خالداً بعد ان فوز وافى المسلمين فافتتحوا بصرى . وروى اللالطائي ان خالداً خرج من ضمير فوجد المسلمين في الجابية . وذكر ابن عساكر ان ابا بكر أمر خالداً ان يأتي الشام فيلقى بها ابا عبيدة ومن معه من المسلمين . واكتفى ابن خلدون بالقول ووافى خالد المسلمين مكانهم عندما وصل ماهان الروم ايضاً .

لا جرم ان من الصعب اثبات مواقع جند المسلمين في الشام اثناء سفر خالد . اما ان يكون جند المسلمين في الجابية حين وصول خالد الى الشام فلا نحسب انه صحيح ، ومن أشاروا الى ذلك كانوا رواة جعلوا معركة اليرموك في سنة ثلاث عشرة من الهجرة وذكروا أنها كانت بعد وصول خالد الى الشام . على حين ثبت ان معركة اليرموك وقعت في سنة خمس عشرة وان معركة اجنادين وقعت في جنوبي فلسطين سنة ثلاث عشرة ، أي بعد نجدة خالد جيش المسلمين[1] . ورواية أن اباعبيدة كان في بصرى قبيل وصول خالد اليها ، رواية تحتاج الى تمحيص ، لأن خبر مجيء ابي عبيدة الى الشام في سنة ثلاث عشرة غير متفق عليه . والثابت ان ابا بكر أوفد اباعبيدة الى الشام بعد تسريح الجنود اليها بمدة غير قصيرة . وهناك ما يشير الى أن ابا بكر أراد أن يعقد لأبي عبيدة فاستعفاه من ذلك .

(١) أخذنا في مقال لنا نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي ، (العدد الثاني) .

ذكر البلاذري ان الثابت ان عمر ولّى اباعبيدة الشام كله حين استخلف . ومن المعلوم ان عمرو بن العاص لما لقي مقاومة عنيفة في جنوبي فلسطين انسحب الى الغمر، الواقع في وادي العربة في انتظار ورود المدد ؛ ولعل شرحبيل بن حسنة الذي وجهه ابو بكر الى كورة الأردن كان معسكراً قريباً من الغمر . يزيد بن ابي سفيان الذي وجهه أبو بكر الى البلقاء فكان يقيم مع جنده فيها ، ينتظر ورود خالد . لهذا نحسب ان خالداً عندما وافى قناة بصرى كان يزيد بن أبي سفيان قد وصل اليها بعد أن بلغه خبر وصول خالد الى الشام . ويجوز ان خالداً بعد وصوله مرج راهط وتغلبه على الغسانيين أرسل رسولاً الى يزيد بن أبي سفيان وطلب اليه أن يتقدم نحو بصرى .

يتراءى لنا أن جند العرب كانت معسكرة في شرقي الأردن من الغمر الى البلقاء . وفي رواية سيف بن عمر أن خالداً كان يريد أن ينفذ الى الشام من محل ليس للروم فيه معاقل وحصون حتى لا تحبسه عن نجدة المسلمين . وقد يسأل سائل لماذا لم ينفذ خالد الى المسلمين ، اذا كان يعلم انهم مرابطون في شرقي الأردن ؟ فيتوجه غرباً من الطريق الأقصر ، والمسافة بين قراقر ومؤآب (قرب الكرك) مائتان وستون كيلومتراً أي من أربع مرحلات . ويدل صدوف خالد عن الذهاب الى مؤآب انه علم ان المسلمين لم يكونوا فيها ، وانما تقدموا الى الشمال .

ولا يستطيع خالد أن ينفذ الى المسلمين من هذا الطريق من دون ان يصطدم بالحصون والقلاع والمخافر التي كانت تحمي شرقي الأردن من جهة البادية . ولم تكن هذه البلاد وقتئذ تحت سيطرة المسلمين لأنهم كانوا في بداية الفتوح . ويظهر من الروايات ان قصبة مؤآب لم تفتح الاّ بعد سقوط بصرى . أضف الى ذلك أن الروم بعد اصطدامهم بالمسلمين في جنوبي فلسطين لا بدّ انهم احتاطوا فسدوا منافذ البادية من جهة الشرق وحثوا أهل البلاد على الدفاع عنها بالاشتراك

معهم . لهذا لا يعقل ان خالداً بعد وصوله الى قراقر متكتماً ، يقتحم بلاد الشام في منطقة لا بد له من الاصطدام بحصونها ومناجزة أهلها . ويتضح من عزمه على النفوذ الى الشام بطريق (قراقر - سوى) انه كان يرى مباغتة الروم في النفوذ اليهم من باب لم يتوقعوا ان يتسلل المسلمون منه .

ذكر موسل في كتابه البادية العربية [1] : ان البدو يدخلون الشام من بادية الشام من منفذين : المنفذ الأول في جنوبي غربي بصرى وجبل حوران . والثاني في شمالي شرقي دمشق بين سلسلة الرواق وتلول الاعطيات . وفي المنفذ الأول تحدد شعبان الزرقاء من جهة وجبل حوران من جهة أخرى حركة البدو . لقد اختط خالد في اول الأمر ان يدخل سورية من المنفذ الأول ، ولما علم ان العدو يسد منافذه غيّر اتجاهه الى المنفذ الثاني أي انه بروره بطريق (الحيرة - دومة الجندل) [2] أراد أن يسلك وادي السر حتى يبلغ أذرعات وهي باب الشام من الجنوب الشرقي .

وإذا سهل الوصول الى المنفذ الأول بالمرور من وادي السرحان وفيه مياه كثيرة ، فمن المتعذر الوصول الى المنفذ الثاني الا بعد هطول أمطار غزيرة في الشتاء تملأ الأودية والجوابي . شمخ جبل حوران بقممه بين المنفذين المذكورين، في شرقه المنطقة البركانية المخيفة التي قامت حافتها سوراً أسود يتجه في سمت الشمال .

ويبلغ عرض المنفذ الأول نحو ثلاثين كيلومتراً يحده من الغرب جبال الزرقاء الوعرة ومن الشرق الحمم البركانية ولقد شيدت قلعتا بصرى وعمان وأقيمت حصون الحراني والأزرق والحلابان للدفاع عنه . وكان الروم يحتلون

---

(١) البادية العربية Arabia Dezerta ص (٥٥٧ — ٥٥٨ — ٥٥٩) .

(٢) تشير رواية عبد الوهاب بن مبارك الى ان خالداً سار من الحيرة الى قراقر بطريق دومة الجندل ، ابن عساكر : الجزء الثاني (ص ١٢١٩)

هذه القلاع والحصون ، وكان العرب المتنصرة يرابطون في أطرافها . ولا بد من أن خالداً علم ذلك من عيونه .

يقع ماء قراقر على الطريق الموصل الى المنفذ الأول ، بينما تقع سوى على الطريق الموصل الى المنفذ الثاني . والذي يسير من قراقر الى سوى يتوجه أولاً الى الشمال الشرقي ويسير خمسين كيلومتراً في منطقة بركانية ، ثم يجتاز مفازة طولها خمسة أيام متوجهاً الى الشمال من دون انحراف . وفي الأيام الأربعة الأولى يشاهد المسافر عن يساره كتلاً من الحمم ، قامت فيها قنن منفردة ، وعرة تهدي خطاه . وفي بداية اليوم الخامس يرى ان الحمم توجهت الى الشمال الغربي نحو المنفذ الثاني . وينبغي له هنا ان يترصد الأطراف بدقة للعثور على الوادي الضحل وفيه آبار (سبع بيار) .

ويظهر مما ذكره موسل ان للقادم من بادية الشام منفذين للدخول الى أرض الشام ، منفذ جنوبي بين جبل حوران في الشرق وجبل عجلون في الغرب ومنفذ في الشمال بين سلسلة الرواقي الممتد نحو الشمال الشرقي من ضمير الى تدمر وبين الحرات التي تبدأ من جنوبي ضمير وتمتد الى الجنوب موازية جبل حوران حتى جنوب قراقر . ويستطيع المسافر المنفرد أو جماعة ان يدخل الى بلاد الشام من محال أخرى ولكن قوة كبيرة فيها فرسان على ظهور الخيل لا تنفذ الى الشام إلاّ من المنفذين المذكورين لأن طريق دومة الجندل وطريق تدمر هما طريق القوافل لنقل التجارات بين العراق والشام .

ويلوح لنا أن خالد بن الوليد اعتزم حين استلامه أمر ابي بكر أن يسير الى الشام من طريق دومة الجندل وكان قد افتتحها في السنة الماضية ووطد أقدام المسلمين فيها ولا بدّ أن أهلها ذكروا له أخبار القتال في جنوبي فلسطين وحشد الروم جيوشهم واستنفارهم للغسانيين . والعرب المتنصرة الآخرين وانزالهم للمرتزقة العرب في بعض الأماكن والحصون . لقد ذكر تئوفانوس ان العرب كانوا

نافرين من بيزنطية لأنها قطعت أعطياتهم بسبب ضعف المالية في الامبراطورية بسبب حرب الفرس . وزعم ان هذه النفرة ساعدت المسلمين على فتوحاتهم . صحيح ان بيزنطية لم تكن في وضع مالي حسن وانها لم تستخدم المرتزقة كالسابق بعد انتصاراتها العظيمة على الفرس في عهد هرقليوس ولكنها حين علمت بغزو العرب جنوبي الشام كان ينبغي لها ان تستخدم بعض المرتزقة وتقدم الأعطيات للغسانيين وغيرهم ممن خدموها في حروبها مع الفرس . وهناك روايات تشير الى ان خالد بن سعيد حينما توغل في مشارف الشام من دون أن يحتاط ، باغته العرب من مناصري الروم وهزموه . ولا يستبعد أن خالداً علم من أهل دومة الجندل أخبار الروم فأدرك أن الدخول الى الشام في المنفذ الجنوبي صعب وأنه ليس من الحزم المجازفة بقوته في اختراق الحصون التي توصد في وجهه باب ذلك المنفذ ، كقلعة بصرى وغيرها . ولعل أخبار الروم وصلته في طريقه من دومة الجندل الى قراقر ، لأن أهل وادي السر كانوا على اتصال مستمر بالشام . ولما وصل قراقر اختمرت في رأسه فكرة الدخول الى الشام من منفذ آخر يخرج منه وراء جموع الروم ، فطلب الى الدليل رافع بن عميرة الطائي أن يدله على الطريق ، فعزم أن يقطعه رغم الصعوبات التي سيلاقيها في طريقه هذا . ونشأت الصعوبة في قطع المفازة بين قراقر وسوى في تدبير الماء للخيل لأنه ليس في المفازة ماء ولأن الوقت ليس موسم الأمطار كما سيظهر لنا .

كيف دبر خالد أمر الماء في قطعه المفازة ؟

لقد دُبّر أمر الماء على الطريقة التي كانت شائعة في غزوات البدو . والبدو كان من عادتهم اذا اضطروا الى اجتياز مفازات في غزواتهم يجعلون أجواف بعض إبلهم مخازن ماء سيارة ، لا سيما اذا أرادوا أن يباغتوا عدوهم ويخرجوا اليه من أماكن لا يتوقع خروجهم منها . وطريقة تدبير الماء تتلخص

في ارواء الجمال العظام ، السمان المسنة ، بعد أن يظمأن أو يجهدهن العطش وذلك بسقيهن نهلاً وعللاً ، ثم يشد أفواههن حتى لا يجترن فيفسدن ما في كراشهن من الماء .

وفي هذا الصدد ذكر موسل[1] ما يلي : «ان البدوي اذا أراد أن يهيج ظمأ الناقة يأخذها الى محل الماء ويعقلها قريباً منه ويصب الماء في الوعاء الذي تشرب منه ، ثم يضرب الماء براحته ، ويحرضها على الشرب بالشدي (أغنية قصيرة) وبتصفيق خاص . ترى الناقة كل ذلك وتسمعه ولكنها لا تستطيع الوصول الى الماء ، لهذا تمد أذنيها شوقاً الى الماء .. يتدرب كثير من الابل بهذا التحريض والتصويت وهي تفهم بسليقتها انها تعد لسفر طويل في صحراء قاحلة وان عليها أن تشرب وتعب كثيراً . واذا عقلت النوق وسمعت ما اعتادت سماعه من التصفيق والغناء مدت آذانها نحو الماء وأظهرت لهفتها الى الماء بأنين خاص . وبقدر ما يكون الماء قريباً منها فان الرحلة أمامها طويلة وانها لن يعثر فيها على ماء . واذا أحل عقالها أسرعت الى الوعاء وشربت جرعات طويلة كبيرة . فيصب صاحبها الماء في الوعاء ما دامت تشرب . ثم يبعدها عن الماء ويتركها ترعى .. ولشدة ما يجهدها العطش ، تختلج ، ثم يفك عقالها فتشرب مرة أخرى . وبهذه الطريقة تشرب الناقة السمينة العظيمة من ستين الى سبعين لتراً من الماء . وأخيراً يشد افواهها لكيلا ترعى وتجتر فيختلط الماء بالكلأ في أكراشها» . هكذا تُسقى في المرة الأولى نهلاً وفي المرة الثانية عللاً .

ويتضح مما قاله موسل ان كايتاني لم يصدق الروايات القائلة بشق كراش الإبل في كل يوم وشرب ما في كراشها رغم اجماع الرواة . وعد خبر الروايات هذه من نسج الخيال ، وقال انه اذا كان الغرض هو حمل الماء ، فلا حاجة لهذا العمل الفظيع ، لأن الجمل يحمل على ظهره من الماء أكثر مما يشربه مرات .

(١) البادية العربية ، ص (٥٧٠)

ولكن موسل شجب قول كايتاني قائلاً : ان كايتاني نسي ان القرب كانت مفقودة عند خالد ، لأنه حينما غادر الحيرة لم يأخذ القرب معه ، لأن الطريق التي سار بها من الحيرة الى قراقر كانت عامرة بالمياه للرجال والخيل والجمال . ولكنه حينما اعتزم في قراقر أن يفوز الى سوى كان لا بد له من أن يفكر في سقي الخيل في المفازة لأنها لا تتحمل العطش .

والإبل اذا سقيت نهلاً وعللاً على الطريقة المذكورة فانها تتحمل العطش . وفي وسع الرجال أن تحمل ماءها على ظهور دوابها . وليست قراقر بلداً توجد فيه القرب وفيها الماء فقط . لهذا استعمل خالد الطريقة الشائعة في البادية . ويبدو مما ذكره موسل أنها لا تزال شائعة عندهم . واذ لم تكن القرب متيسرة في قراقر حملت الإبل الماء في جوفها بدلاً من أن تحمله على ظهورها . وذكر موسل انه ليس في عمل خالد ذلك شيء يستدعي العجب ، لأن قوته كانت بحاجة الى الطعام ؛ فالإبل التي تنحر وتشق بطونها يأكل الجند لحومها . أما الماء الذي يستخرج من كراشها فبعد ركوده يصلح لشرب الخيل واذا ما مزج بلبن النوق كما أشار اليه سيف بن عمر في روايته يشربه الرجال .

واذا كان عدد الإبل التي استخدمت للماء وللنحر خمسين دابة وشرب كل منها ستين ليتراً من الماء فتكون قد حملت ثلاثة آلاف لتر من الماء ، أي ما يكفي لارواء مائة جواد خمسة أيام . وأضاف موسل قائلاً ان أرض المفازة اذا أمطرت في الشتاء يسقط الجواد على الكلأ وهذا ما يجعل ستة لترات من الماء ترويه يومياً .

وبعد أن دبر خالد أمر الماء تقدم نحو سوى . لم يذكر ياقوت اسم سوى . أما البكري فقد رسم سوى بفتح أوله ؛ ويظهر مما كتبه انه ماء ولكنه لم يحدد موقعه . وفي بيت للنابغة انه في ديار كلب :

نجالة الذنابة أو سوى مضنة كلب من مياه المناظر ؟

وقد جعله موسل كما تقدم في أرجاء سبع بيار على طريق السيارات بين الرطبة وخان ابي الشامات . وقد شيد الافرنسيون فوق الرابية المشرفة على الشعيب مخفراً للدرك . والمخفر يرى على يمين الطريق للقادم من الرطبة والبدو يلفظونه كما رأى موسل بسكون أوله . وفي رواية لسيف بن عمر ان مُحرز بن جريش المحاربي ولعله من أهل تلك الديار قال لخالد : « اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ، أمه تفض الى سوى . » وقد أكد عبد العزيز العقيلي ان المسافر من قراقر اذا وضع نجمة الصباح على جانبه الأيمن يصل الى سبع بيار .

(يتبع) طه الهاشمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) بادية العرب ، (ص ٥٠٩) .

تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٤ —

٥ — القمّي المفسر :

وممن بحث هذا الموضوع في هذا العصر القمي حسن بن محمد (٣٧٨) المفسر وقد سبق أن ذكرنا أنه يعالج الموضوع على طريقة المتكلمين أكثر مما يعالجه على طريقة المفسرين · وكان مثالاً لغيره من المفسرين الذين وسعوا ميدان علم التفسير باستمداد بعض براهينهم من علم الكلام وعلم الفلسفة ، وأشرنا الى الفرق بينه وبين الطبري في بحث هذا الموضوع ·

وذكر عبد العليم الهندي (في مقالته السابقة) أن القمي يؤكد بأن طبيعة هذه المعجزة يمكن فقط أن تعرف ولا يمكن أن توصف شأن القطعة من الذهب الصافي أو جمال الوجه · وكل شخص — في رأيه — يقول غير هذا وينكره ويحاول أن يبرهن أن الاعجاز كان بالصرفة أو الخروج عن أنواع الكلام المعروفة أو الخلو من التناقض أو الإخبار عن الغيب هو مخطئ مطلقاً ·

٦ — الواسطي الأديب المتكلم :

يؤلف في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (٣٠٦) كتاباً في إعجاز القرآن البياني يقول فيه : إن القرآن معجز بالنظم · والكتاب مفقود · ولم أجد من تكلم عن فكرة المؤلف بالتفصيل · وذكره الرافعي فلم يزد على أن قال إنه قد سبق عبد القاهر الجرجاني الى التأليف في هذا الوجه من الإعجاز وإنه أول من جود في هذا المذهب — أي مذهب أن القرآن معجز بالنظم —

ثم تبعه الرماني (٣٨٣) وأنه ـ أي الواسطي ـ بسط القول فيه على طريقتهم في التأليف . وذكر الرافعي كما ذكر عبد العليم المندي أن الجرجاني شرح كتاب الواسطي شرحاً كبيراً سماه «المعتضد» وشرحاً أصغر منه وذلك قبل أن يضع كتابيه «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» . ويعقب الرافعي على ذلك بقوله : «ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القاهر في دلائل الإعجاز على الواسطي» . ومن الواضح أن الرافعي يدلي بحكمه هذا وليس بين يديه كتاب الواسطي (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٢) . ولا ندري علامَ اعتمد الرافعي في قوله بأن الواسطي هو أول من جوّد في هذا المذهب .

٧ ــ الرماني الأديب المتكلم :

ومن ألف في الاعجاز في هذا العصر علي بن عيسى الرماني وقد ذكر كتابه صاحب الفهرست ومنه نسخة في استامبول حصل على نسخة منها عبد العليم الهندي وقال (في مقالته السابقة) : إنه سنطبعها قريباً .

وقد ذكر الرافعي أنه المؤلف الثالث الذي ناصر قضية الأسلوب والنظم بعد الجاحظ والواسطي وقال إنه بذلك رفع الرأي درجة ثالثة . (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣) .

وذكر ابن سنان الخفاجي (في كتابه سر الفصاحة) رأي الرماني في الاعجاز فقال إن الرماني جعل مراتب الكلام في تأليفه ثلاثاً : متنافراً ومتلائماً في الطبقة الوسطى ومتلائماً في الطبقة العليا والقرآن كله متلائم في الطبقة العليا وذلك بيّن لمن تأمله والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ويفهم من هذا أن الإعجاز عند الرماني يقوم على تلاؤم الألفاظ .

وذكر يحيى اليمني صاحب الطراز رأي الرماني في الإعجاز (كتاب الطراز

ليحيى اليمني ج٣ بحث الإعجاز ، في نقد المذهب السابع ووجوه الإعجاز) فقال عند نقده مذهب القائلين بأن القرآن معجز ببلاغته : « وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة الى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ لأنه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً ، وغالب ظني أن هذا المذهب يحكى عن أبي عيسى الرماني » .

ونرى من هذا أن صاحب الطراز قد ألبس علينا الأمر فلم يتضح من جملته أي مذهب مذهب الرماني في إعجاز القرآن من حيث البلاغة ، أهو مذهب أن البلاغة في المعاني دون الألفاظ ، أم في الألفاظ والمعاني معاً فضلاً عن أنه بنى قوله على غلبة الظن فلا يمكن الاعتماد عليه .

وذكر السيوطي (الاتقان ج ٢ ص١٩٨ وما بعدها) رأي الرماني فقال إن الإعجاز عنده بالصرفة والإخبار عن الأمور المستقبلة ونقض العادة وقياسه بكل معجزة وإنه فسر نقض العادة باتيان القرآن بطريقة مفردة من النظم خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق بها كل طريقة وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام وفسر قياسه بكل معجزة بما معناه أنه أدى إلى ما أدت اليه المعجزات من عجز الناس عن الإتيان بمثلها .

ونجد أن السيوطي من بين من ذكروا رأي الرماني هو أقربهم من الصواب في معرفة رأيه . فعبد العليم الهندي لخص رأيه (في مقالته السابقة) فذكر ما ذكره السيوطي وزاد عليه أيضاً أنه معجز لأنه لم يعارضه شخص برغم الدواعي الكثيرة والحاجة الملحة والتحدي العام ثم لاتصافه بالبلاغة التي يمكن إدماجها تحت اسم النظم الحسن الذي ذكره السيوطي .

وقال عبد العليم الهندي بعد أن أورد رأي الرماني : « ونرى هنا كيف أن الرماني جمع بين حجتي الأسلوب والصرفة اللذين ينفي الواحد منهما الآخر وهذه النقطة في التعارض قد ضاعت على مرور الزمن وأصبح يمكن أن يوضع نظريتان متعارضتان جنباً الى جنب » . ثم قال :

« ويعرض – أي الرماني – في مسألة الأسلوب هذا السؤال وهو : كيف يستطيع المرء أن يكتشف أن أسلوب القرآن فوق طاقة البشر ؟ وأول جواب على هذا أن ذلك يتعلق بذوق الشخص والذين حصلوا على ذوق قويم في الأسلوب العربي هم وحدهم قادرون على التأكد من ذلك وأما العامة والأعاجم فلا يستطيعون التأكد من هذه الحقيقة وإنما يعتمدون على آراء أولي العلم » .

ونلاحظ في رأي الرماني في الإعجاز اتجاهاً جديداً وهو جمعه لكثير من النظريات التي قيلت قبله، فهو لا يأخذ بناحية وينقد الأخرى أو يرفضها بل يقبل كل ما قيل في الأمر على علاته فكأنه في هذا يوفق بين الآراء المختلفة كما نلاحظ أن تركه مسألة الحكم في المفاضلة بين الأساليب إلى الذوق الأدبي وحده دليل على نضج ذوقه في البيان وحسن فهمه للأدب .

٨ – الخطابي :

ويأتي بعد الرماني معاصره الخطابي (٣٨٨) وهو ممن جمع بين الكلام في البلاغة وعلم الكلام وألف كتاباً في الإعجاز . توجد منه نسخة في ليدن وذكر رأي الخطابي في البلاغة وذكر الرأي نفسه السيوطي قبله في الإتقان ؛ قال السيوطي : (الاتقان ج ٢ ص ١٩٨) وقال الخطابي : « ذهب الأكثرون من علماء النظم الى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصغوا فيه الى حكم الذوق ثم يذكر ما مؤداه أن كلام القرآن جمع بين المتضادين الجزالة والسهولة ليكون آية للنبي وإنما عجز العرب عن الإتيان بمثله لأنهم لا يستطيعون أن يحيطوا بالألفاظ في العربية وتأدية المعاني في وجوه الكلام المختلفة وأن القرآن جمع جمال الألفاظ الى حسن النظم وسمو المعاني مجموعة في كلام واحد هو كلام العليم القدير ولم تجتمع في غيره » ثم يعدد ما تضمنه القرآن من المعاني المختلفة بالتفصيل وبخاصة إخباره عن الغيب والأمور المستقبلة . ومن الجميل في رأيه قوله : « وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس

وهو صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ذوي الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه اليه . قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » .

ونلاحظ على الخطابي أنه جمع بين أقوال مختلفة قيلت في القرآن ولكن بعضها لا يناقض بعضاً ويدل جمعه إياها على معرفة عميقة بجمال الكلام وبالبلاغة الحقيقية . وفهمه لها قريب مما نفهمه نحن الآن من صفات الأدب الرفيع : معان سامية وأسلوب محكم جميل وعاطفة قوية تؤثر في القلوب . وقد أنقص من صفات هذا الأدب عنصر الخيال وربما كان ينحل عنده فيدخل قسم منه في المعنى وقسم منه في الأساليب فيكون مفهومه عن البلاغة قريباً جداً من الكمال .

٩ — العسكري

يرى أبو هلال العسكري أن إعجاز القرآن ببلاغته ولذلك ارتأى ضرورة دراستها . قال ابوهلال (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، الخولي : ص ٢٨) : « البلاغة إنما تدرس لأن إغفالها يؤدي إلى عدم وقوع العلم بإعجاز القرآن على وجه استدلالي تعليلي والقول في ذلك بالتقليد غير مقبول عنده ولا لائق لأنه قبيح بالفقيه المؤتم به والقارئ المهتدى بهديه والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه وبالعربي الصليب والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها الزنجي والنبطي وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي » .

وكتاب ابي هلال في الحقيقة كتاب أدبي لم يخصص لفكرة الإعجاز وإنما لبيان بعض فنون البلاغة وبيان ما يحتويه القرآن الكريم منها وما يحتويه الشعر

ولهذا لا نرى له رأياً صريحاً عن الإعجاز في هذا الكتاب وإنما يستنتج من المقدمة كما قلت أن الإعجاز عنده قائم على البلاغة .

* * *

نقد وتلخيص :

نلاحظ على مؤلفي هـذا العصر (الرابع الهجري) ممن ذكرت آراءهم في الإعجاز آنفاً أنهم لم يأتوا بجديد في الموضوع وإنما دخل ميدان المعركة فيه والكلام عليه طائفة المفسرين فتحدث الطبري عن الفكرة ببساطة وبما يستدعيه فن التفسير من القول وتكلم القمي المفسر كلام المفسر المتأثر بعلم الكلام ثم نرى في هذا العصر ظاهرة جديدة لم تكن واضحة في القرن الثالث وهي أن الأدباء أصبحوا يؤلفون كتباً مستقلة في البلاغة تعنى بالإعجاز و كان مؤلفوها ممن تأثروا قليلاً أو كثيراً بعلم الكلام كالواسطي والرماني والخطابي أو أدباء خلصاً كالعسكري على حين كان الجاحظ في القرن الثالث أديباً ومعتزلياً .

ثم نرى المتكلمين كالأشعري والتوحيدي وبندار الفارسي قد ثابروا على طرق البحث كأسلافهم من قبل كما نشهد هذا العصر لم يخل ممن رموا بما نسميه الآن حرية الفكر كالمتنبي الذي لم ينسب اليه فقط عدم اعتقاده بإعجاز القرآن بل رمي في حداثة سنه بادعاء النبوة ومحاولته معارضة القرآن .

القرن الخامس الهجري :

يمتاز هذا العصر بوفرة المتكلمين والمؤلفين في مسألة الإعجاز ويعد بحق عصرها الذهبي ولا عجب فإن هـذه المسألة جزء من الحركة الفكرية العامة ومظهر من مظاهرها ، وقد نضجت في هذا العصر العلوم الفلسفية والعقلية بعد أن انقضى دور الترجمة والنقل وانتقل العرب والمسلمون إلى دور الهضم والانتاج كما نضجت العلوم والفنون اللغوية والأدبية . وأشهر من اتهم بالمعارضة فيه قابوس

ابن وشمكير أحد ملوك الديلم، وابن سينا الفيلسوف ، وابو العلاء المعري الأديب المفكر المتفلسف . وأشهر علماء الكلام الذين بحثوا هذه المسألة فيه اثنان من الشيعة هما الشريف المرتضى وداعي الدعاة وثلاثة من رجال السنة هم الباقلاني وكان أديباً أيضاً وابن سراقة وابن حزم الأندلسي . وأشهر الأدباء اثنان من رجال البيان : ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني وكان من علماء الكلام في أهل السنة أيضاً . وسنورد كلمة في كل واحد منهم على الترتيب .

١ – قابوس بن وشمكير :

قيل بأن قابوس بن وشمكير (٤٠٣) عارض القرآن وقد ذكره عبد العليم الهندي في جملة من اتهموا بالمعارضة ودافع عنهم بما سبق أن ذكرته قبل . وممن ذكر اتهام قابوس بالمعارضة ودافع عنه الرافعي حيث يقول : « وزعم هؤلاء الملحدة أيضاً أن حكم قابوس بن وشمكير وقصصه (وهو شمس المعالي قابوس ابن وشمكير ، من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان ، وكان أديباً مترسلاً) هي من بعض معارضته القرآن وكأنهم يحسبون أن كل ما فيه أدب وحكمة وتاريخ وأخبار فتلك سبيله وما ندري لمن كانوا يزعمون مثل هذا . ومثل هذا قولهم : إن القصائد السبع المسماة بالملعقات هي عندهم معارضة للقرآن بفصاحتها » . وليس بين أيدينا ما يثبت هذه المعارضة .

٢ – ابن سينا :

وقد اتهم في هذا العصر ابن سينا (٤٢٨) بمعارضة القرآن ولم يصلنا ما يستأنس به من نبإ ما اتهم به وقد ذكر الرافعي هذا بدون أن يشير إلى مصدره فقال : « ومن أعجب ما رأيناه أن بعضهم اتهم ابن سينا بمعارضة القرآن لأنه زنديق وأن ابن سينا وضع رسالة في دفع هذا الافتراء . قلنا وأين ابن سينا من طور سيناء هذا رجل وهذا جبل (؟) ولكنها عصور الجدل والمكابرة » .

٣ — أبو العلاء المعري :

زعم بعضهم أن أبا العلاء المعري (٤٤٩) قد عارض القرآن بكتاب سماه «الفصول والغايات في محاراة السور والآيات» وأنه قيل له ما هذا إلا جيد غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن فقال حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون ... ومما جاء في كتابه قوله : «أقسم بخالق الليل والريح الهابة بليل بين الشرط ومطالع سهيل إن الكافر لطويل الويل وإن العمر لمكفوف الذيل تعدّ مدارج السيل وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج» فلفظة ناج هي الغاية وما قبلها فصل مسجوع فيبتدئ بالفصل ثم ينتهي الى الغاية وهذا كما ترى عكس الفواصل في القرآن الكريم لأنها تأتي خواتم لآياته .

وينفي الرافعي التهمة عن المعري لأنه أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه وأعرف بضعفه فهو يستعمل الكلمات الغريبة ويتعثر في الأسلوب ويراغم اللغة الخ فليس مما يعارض به القرآن ولأن المعري أثبت إعجاز القرآن فيما أنكره في رسالته على ابن الراوندي فقال :

«وأجمع ملحد ومهتد وناكب عن الحجة ومقتدٍ أن هـذا الكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوه بالإرجاز ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون ولا في الرجز من سهل وحزون ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الأرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق» .

ويقول الرافعي إنه لم يجبر أبا العلاء المعري أحد على أن يقول هذا القول في إعجاز القرآن فهو لا يقول إلا ما يرى في نفسه وهو وإن كانت له آراء فيما وراء الطبيعة لا تستجيب الدين لكن إدراكه للبلاغة يجعله يقول الحق .

فالرافعي كما ترى يرفض فكرة معارضة المعري للقرآن من أصلها لأنه رد على ابن الراوندي بما سبق ويكذب القائلين بها . وليس من مانع في الحقيقة لأن يكون المعرّي فكر في معارضة القرآن وإمكانها في زمن ورأى عدم إمكانها في زمن آخر فالرأي يتغير بتغير الظروف والحالات العقلية والنفسية والمعري في كثير من المسائل الدينية والفلسفية لا يثبت على رأي واحد لأنه يقف في أكثر الأوقات منها موقف الحائر المتردد وقد يجعل الشك سبيلاً الى اليقين .

٤ً — الشريف المرتضى :

ألف الشريف المرتضى (٤٣٦) كتاباً في الإعجاز ضاع ويقول عبد العليم الهندي (في مقالته السابقة) فيه ما ترجمته : « وضياع كتاب الشريف المرتضى موجب للأسف لأنه اشتهر شهرة عظيمة وقال بنظريته قبله النظام فقط . ولو ظفرنا به لرأينا أسلوبه في البرهان على مضمونها . وذكر بعض براهينه غيره من المؤلفين ومن حسن الحظ أن جزءاً من مؤلفه الخاص نفسه في هذا الموضوع لا يزال موجوداً . وكان من عادته أن يجيب على أسئلة تتعلق بالدين والألوهية من يراسله من الناس ولا تزال مجموعة من رسائله موجودة (CMS. Berlin Ret. 40) وتناقش اثنتان من هذه الرسائل هذه المسألة ونقف بها على آرائه وبراهينه (MS. Berlin Ret. 40. fol. 4 a - 56 and 926. 94 a)

ويقول في موضع آخر من مقالته : « أما القول بالصرفة فكان له من السيد الشريف المرتضى بطل آخر وربما كان آخر رجل يرى أن معجزة القرآن هي فقط بالصرفة ونحن لا ندرك ما يتصل بأقواله في الموضوع لأن كتبه ضاعت ولكنه يذكر في إحدى رسائله (MS. Berlin Pet. 40. fo 46) أن الحجة الأولى هي أن الفرق بين الأقسام الصغيرة في القرآن وأحسن كتابات العرب ليس واضحاً لكل أحد بالرغم من أن الفرق بين كلام العرب الجيد وكلامهم

الردي، واضح وهكذا يكون الطريق الوحيد للبرهان على إعجاز القرآن هو أن العرب لم يأتوا بمثله أو بتعبير آخر هو أن الله صرفهم عن ذلك . ثم يعلق عبد العليم الهندي على القول بالصرفة فيقول : « وهذا الدليل أي الصرفة يوجد عند المتكلمين من اهل الشيعة أكثر منه عند المتكلمين من أهل السنة ـ انظر القطب الراوندي (النصوص العربية) مما يثبت ارتباط هؤلاء الشيعة النظريين بالمعتزلة وبخاصة المتقدمين منهم » .

وقال الرافعي من غير إشارة الى المصدر : « وقال المرتضى من الشيعة : (بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن) فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأساليب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذ لم يكونوا اهل علم ولا كان العلم في زمنهم وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى » (ص ١٤٤، إعجاز القرآن للرافعي) .

ونلاحظ أن بسط الرافعي رأي المرتضى خطأ لأن معنى سلبهم العلوم أنها كانت موجودة فيهم فتكون الصرفة بسلبهم العلوم والرافعي فسره بأنهم لم يكونوا بطبيعتهم عارفين بهذه العلوم فإذن لم يسلبهم الله شيئاً فأين الصرفة إذن ويظهر أن سبب هذا الخطأ أن الرافعي فهم من معنى العلوم غير ما يقصده منها المرتضى من أنها العلوم المساعدة على نظم الكلام .

ونلاحظ فرقاً دقيقاً بين رأي النظام في الصرفة ورأي المرتضى فالصرفة عند عند النظام عدم معارضتهم للقرآن مع قدرتهم عليها والصرفة عند المرتضى عدم قدرتهم عليها لأنهم سلبوا مقوّماتها وما يساعدهم من المعارف عليها بعد أن كانت متأصلة فيهم وقد لاحظ عبد العليم الهندي أن الشريف المرتضى ربما كان آخر من يقول في إعجاز القرآن بالصرفة وحدها دون سبب آخر وليس ذلك صحيحاً فمن الحق أن أكثر من قال بها بعده قد جمعها مع مسألة النظم كالأصفهاني ولكن الخفاجي مثلاً يقول بها فقط .

٥ – داعي الدعاة :

وفي هذا الزمن نرى معاصراً لأبي العلاء المعري هو داعي الدعاة [ابو النصر هبة الله الشيرازي الملقب بالمؤيد في الدين] يردّ على دعاوى ابن الراوندي في القرآن ويسعى لإبطالها وقد رأينا أن ابن الراوندي لا يرى عجز العرب عن محاراة القرآن حين تحدّاهم النبي دليلاً على النبوة وأن الفصاحة إذا ألزمت العرب بالإعجاز فهي لا تلزم الأعاجم .

ذكر الأستاذ كراوس (في مجلة الأديب ص ٣٢ سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤م) أن داعي الدعاة قال في ردّه : « إن الكلام ألفاظ مقدّرة على معان ملائمة لها . والكلام كالجسد والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجساداً لاتتفاوت تفاوتاً كثيراً . فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن الهندام فهو أمر قريب ، وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التي هي المعاني . فإن نفساً واحدة تقع بوزان الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس اليها والحاجة الى الامتيار منها . والقرآن كلام هو بمثابة الجسد . ومعناه روحه الذي كنى الله عنه بالحكمة فلم يذكره في موضع من الكتاب إلا قرنه بالحكمة . وقد قاربت أيها الخصم بالإقرار بكونه معجزاً من حيث لفظه للعرب الذين هم أهل اللسان ثم أردفته بقولك : « فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان في شيء » . فنقول إن في معناه المكنيّ عنه بالحكمة ما تقوم به الحجة على كل من تفتق بالكلام لسانه على جميع اللغات وسائر العبارات . والحجة فيه أن ما كان ظاهره الذي هو بمنزلة الجسد الذي لا يتفاوت بعضه عن بعض كثير التفاوت بهذه المثابة من الاعجاز فما يقال في معناه الذي هو بمنزلة نفس شريفة تفتقر النفوس اليها كلها فأين موقعها من الإعجاز ؟

ونستنتج من هذا النص أن الإعجاز عند داعي الدعاة قائم على المعنى أكثر

منه على الألفاظ والمعنى عنده هو روح الكتاب الكريم وهو الحكمة فإذا كان القرآن معجزاً للعرب بألفاظه فهو معجز للأعاجم بمعانيه التي هي روح تلك الألفاظ وبهذا يردّ على طعن ابن الراوندي في إعجاز القرآن .

٦ ــ الباقلاّني :

ألّف القاضي الباقلاّني (٤٠٣) كتاباً مشهوراً في الإعجاز ردّاً على الحركة التي قامت في عهده تعاكس فكرة إعجاز القرآن وسدّاً لتواني علماء عصره في هذا البحث . وهو عالم من علماء التوحيد ومن أتباع الأشعري وتلاميذ العباس بن مجاهد الطائي الذي كان تلميذاً لذلك الإمام الكبير . ولم يصلنا من مؤلفاته إلا هذا الكتاب وهو خير الكتب التي ألفت في موضوع الإعجاز الى عصره . فقد تعرض فيه الكاتب للنظريات التي قيلت قبله في الإعجاز ونقدها . ثم صوّر حال أهل عصره من حيث عقيدتهم في الدين وفي إعجاز القرآن وبلاغته بصورة خاصة وحاذر من ضعف الدين وفكرة الإعجاز في النفوس . ولما كان للكتاب شأن كبير في تاريخ الفكرة فإني أرى حاجة ماسة الى تلخيص الأفكار والآراء المهمة التي وردت فيه لا سيما وأن المؤلفين بعده قد احتذوا في الغالب مثاله في التأليف . ويتلخص ما أورده فيما يلي :

١ ــ أن القرآن في نفسه حجة للنبوة ومعجزة وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك في المشاهدات ويورد من القرآن ما يؤيده في هذا المعنى . وهي حجة عامة سبقه اليها غيره من المتكلمين .

٢ ــ يذكر ما حداه على تأليف كتابه من طعن الملاحدة في القرآن وتسويته بالشعر وتقصير العلماء في الدفاع عن الإعجاز بكتب كافية مما جعل الناس يظنون أنه لا مؤيد لهذه الفكرة .

٣ — يذكر أن الجاحظ سبق الى وضع كتاب في نظم القرآن ولكنه غير كاف لأنه لم يزد فيه على ما قال المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى . ولكنه لا يذكر كتب الواسطي والرماني والخطابي الذين سبقوه .

٤ — كان الرأي السائد في عصره أن القرآن معجز لمعاصري النبي من العرب دون سواهم وهو يقول بأنه معجز لكل عصر ويكفي أن نقارنه بغيره من الكلام في كل عصر لنتبين فضله في ذلك (ص ٣ — ٥ من كتابه الإعجاز) .

٥ — يذكر أثر القرآن في نفوس سامعيه ويستشهد بآيات من القرآن في هذا المعنى ويذكر أنه لا تثبت على عدم إعجازه حجة وأن القرآن تحدى العرب بما هو من لسانهم العربي ولم يأت بأعجمي (ص ٦ من الكتاب المذكور) .

٦ — القرآن وحده معجز ببلاغته من بين الكتب المنزلة لأن نظمها ليس معجزاً وإعجازها من ناحية إخبارها عن الغيوب فقط وإعجاز القرآن ببيانه ينوب مناب سماع الكلام من القديم سبحانه والنبي يعلم أن ما يوحى اليه كلام الله على طريق الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على وجه الاستدلال .

٧ — إذا ثبت أن القرآن معجز وأن الخلق لا يقدرون عليه ثبت أن الذي أتى به غيرهم وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم وأنه صدق وتلتقي هذه النقطة مع الأولى (ص ٩ و ١٠ منه) .

٨ — الدليل على أن العرب لم يأتوا بمثله النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ويردّ على من يقولون بأن العرب ربما لم يعلموا أن النبي تحداهم وأن النبي كتم آيات التحدي عنهم ويسعى ليثبت أن النبي قد بلّغهم إياها وأن في القرآن ما يدل على أنهم ردّوا على التحدي بتهمة أن القرآن مخلوق .

٩ — يورد آيات يجمل بها أقوال المشركين في القرآن وآيات تدل على أنهم كانوا يجادلون (ص ١١) .

١٠ً — يحتج بأنه لو كان في استطاعة العرب يومئذ الإتيان بمثله لقدموه من أشعارهم ونثرهم وقارنوه بالقرآن ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

١١ً — يدرك إعجاز القرآن من كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة ويذكر (ص ١٤) قصة عتبة بن ربيعة حينما سمع النبي يقرأ سورة السجدة وقصة ابي سفيان حين جاء النبي مسلماً .

١٢ً — يرد على القائلين بالصرفة ويقول لو كان الأمر كذلك لرأينا مثله في نظم أهل الجاهلية أو من بعدهم وإنما إعجازه لشيء فيه من حسن النظم والبلاغة ولو كان الاعجاز بالصرفة لم يكن القرآن معجزاً بل المنع هو الذي يكون معجزاً (ص١٥) .

١٣ً — يذكر جملة أقوال لمن شكّوا في إعجاز القرآن اوردها صاحب الاتقان ويذكر قول القائلين بأنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب وأنه يصح من كل منها على حدّ واحد . (ص ١٧ إعجاز القرآن للباقلاني) .

١٤ً — يذكر أن علة إعجاز القرآن البياني التفاوت العظيم في النظم (ص١٧) الموجود في اللغة العربية دون غيرها لأنها محتملة لوجوه من التلوّن في التعبير وفي دلالة الكلمات والترادف لا توجد في غيرها .

١٥ً — يذكر أن بعضهم قال بمعارضة ابن المقفع للقرآن ويقول إن كتابه الدرة اليتيمة ليس فيه فضل لابن المقفع والحِكَم فيه لأسلافه ثم يذكر أنه استحيا لنفسه ومزّقها (ص ١٧) .

١٦ً — يتعرض للإعجاز على طريقة علماء الكلام فيتساءل أكان ذلك لأنه حكاية عن الكلام القديم أو لأنه تعبير (عبارة) عنه او لأنه قديم في نفسه ويقول في الرد على ذلك : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ولا بأنه حكاية عن الكلام القديم . فيكون رأيه إذن أنه تعبير عن الكلام القديم .

١٧ً — يقول ادعى جماعة أنه شعر ومن الملحدة من زعم أن فيه شعراً ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما اعتادوه من أسجاعهم .

ومنهم من يدّعي أنه كلام موزون فلا يخرج ذلك عن أصناف مايتعارفونه من الخطاب ٠

١٨ّ — يذكر أن ممن ذهب الى ان القرآن غير معجز النظام وعبّاد بن سليمان وهشاماً القرظي (ص ١٦) ٠ ونحن نعلم أنهم يقولون بالصرفة لا بعدم إعجازه مطلقاً ٠

١٩ّ — البديع ليس سبباً في الاعجاز لأنه كثير في شعر ابي تمام وفي استطاعة البشر ان يحذقوه ٠ (الصفحة والكتاب نفسها) ٠

٢٠ّ — يدرك غير العربي إعجاز القرآن باطّلاعه على عجز العرب عنه ٠

ونرى الباقلاني يدعو للنظر في نصوص القرآن وغيره من ضروب الكلام في اللغة العربية لمعرفة الفرق بينها وهنا يقول إنه ليس في وسع من لا يعرف العربية ولا من تعلمها ولكن لم يصل فيها الى درجة العلم العميق بالنواحي الدقيقة أن يحكم في هذه المسألة ولكن يجب ان يعتمد على من يستطيع التفريق بين الأسلوب العادي والأسلوب المعجز ٠ ثم يقارن الباقلاني بين القرآن ورسائل للنبي ليبيّن فرق ما بينها في البلاغة وأن النبي عاجز عن مثل القرآن، وهذا يثبت أنه من لدن الله ثم يقارن بين أقوال الصحابة وغيرهم من المتقدمين وبين القرآن فيثبت عجزهم عن مثل أسلوبه ثم يبين سخف كلام مسيلمة وسجاح ثم يتناول الأشعار ليقارن بينها وبين القرآن وليقول أن الشعر دون النثر في جودة الأسلوب لأنه مقيد بالوزن والقافية وان ليس هناك داع الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن أسلوب الشعر دون أسلوب النثر ـ ونحن نخالفه في هذا الرأي ـ ثم يذكر أنه إنما لجأ الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن قوماً من الجهال يقارنونها ٠

ثم يقارن معلقة امرئ القيس أحسن شعرائهم بالقرآن ويبين ما في الاثنين من جمال وما في المعلقة من عيوب ويترك الحكم في هذا الأمر لكل من كان عنده ذوق من الذوق الفني ثم يقارن شعراء عصره بالقرآن فقد يدّعي أحدهم أنه أشعر من امرئ القيس زوراً وبهتاناً ٠ ونحن نخالفه أيضاً في تقديم شعر الأوائل ٠ وقد استغرقت هذه المقارنات نحو نصف الكتاب وينظر بعد ذلك الى أشياء صغيرة تتلخص فيما يلي ٠

آ — هل إعجاز القرآن واضح بنفسه ؟ ٢ — ما هو سبب إعجاز القرآن ٣ — على أي سند يقوم ؟ ٤ — مسألة التحدي ٥ — المدلول الصحيح لكلمة معجز ٦ — لماذا لا يصح أن يقال إن القرآن من تأليف النبي .

ثم يذكر شؤوناً أخرى تتعلق بالاعجاز ويأتي بقسم منفصل عن البحث يأتي فيه بأنواع مختلفة من الكلام وأمثلة لها من القرآن ويقول في جملة ما يقول إن الكتابة في هذا الموضوع خطيرة وإنه ليس في مقدور بشر أن يحصر نواحي الجمال الوجود في القرآن .

٢١ — يتعرض لمقدار المعجز من القرآن (ص ١١٧ من كتابه) ويذكر قول أبي الحسن الأشعري وعامة أصحابه في أن أقل المعجز أصغر سورة وقول من شرط الآيات الكثيرة في القدر المعجز ونراه يوافق على رأي الأشعري في أن مقدار المعجز هو أصغر سورة ويقول إن تحدي القرآن بقوله « فليأتوا بحديث مثله » لا يخالف هذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة ولأنه يحتمل أن يكون المراد بحديث مثله القبيل دون التفصيل .

٢٢ — تتلخص وجوه إعجاز القرآن في رأي الباقلاني في ثلاثة براهين وهو مخالف رأي الصرفة . وهذه البراهين الثلاثة هي :

آ — احتواء القرآن على تنبؤات عن المستقبل وهذا خارج عن قدرة البشر .

ب — كون النبي كان أمياً أمر مسلم به وهو لم يطلع على كتب الأقدمين وقصصهم وتراجمهم ومع هذا فقد ذكر الحوادث الماضية منذ خلق آدم حتى زمنه فليس من منصرف عن القول بأنه تلقى كل هذا رأساً من الله عن طريق الوحي .

ج — القرآن يتجاوز قدرة البشر في النظم والأسلوب والبلاغة .

وهذا ما ذكره من تقدموه ويرجع اليه فضل التفصيل فيه وهو قد اعتنى بالتوسع في البرهان الثالث فذكر الأمور الآتية :

آ — أسلوب القرآن على اختلاف أشكاله خارج عن الاساليب المعروفة وخاص به

٢ — لم يوجد عند العرب أثر أدبي يجاري القرآن في بلاغته بحيث يحفظ فيه جمال الأسلوب ويكون في طوله بقدر القرآن .

٣ — عرض القرآن لموضوعات شتى في الحكم والأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص وكل ما جاء به حتى لا يقارن به أحسن الأشعار والخطب ، وانما يجيد الشعراء والخطباء في نوع منها وقد أجاد القرآن فيها كلها .

٤ — نرى أن أقسام الكلام تتفاوت في كتابة أحسن الأدباء حتى اذا كتبوا في موضوع واحد وبخاصة عندما ينتقلون من فكرة الى أخرى ونرى القرآن على خلاف ذلك يجمع النواحي المختلفة فيبرزها بطريقة تظهر فيها أنها وحدة منسجمة .

٥ — أسلوب القرآن ليس أعلى فقط من أسلوب الإنس بل من أسلوب الجن أيضاً ويقول بهذا الصدد : ربما قال بعض الناس كيف نحكم بهذا فليس إلا مجرد ادعاء لأنه ليس بين أيدينا كلامهم فيقال نحن متأكدون على الأقل من أن أسلوب القرآن أرفع من أسلوب الكلام الذي ينسبه العرب الى الجن .

٦ — أساليب الأداء المختلفة الموجودة في كلام العرب من بسط وإيجاز وجمع وتفريق واستعارة وتصريح موجودة في القرآن وهي في القرآن أعلى من تلك اذا قورنت بها .

٧ — تأليف كلام في رأي جديد أصعب من تأليف كلمات في رأي مألوف والقرآن يعبر عن أفكار جديدة بطريقة تفوق قدرة البشر .

٨ — تظهر جودة نظم القرآن وسمو بلاغته إذا أخذت كلمة منه واستعملتها في كلام آخر شعر أو نثر وتسترعى انتباه القارئ والسامع وقد يدمج البلغاء الجملة من القرآن في كلامهم فتأتي فيه كالجواهر والحلي .

٩ — إن حروف الألف باء هي ٢٨ حرفاً والمقاطع التي ابتدئ بها بهذه الحروف في القرآن هي ٢٨ وعدد الحروف المستعملة في هذه البدايات (١٤) أي نصف عدد هذه المقاطع وقد صنف العلماء الحروف فيما بعد في زمن متأخر الى حروف حلقية وغير حلقية ومهموسة ومجهورة ومطبقة ومنفتحة وشديدة وغير شديدة وعدد الحروف المستعمل في هذه البدايات من كل نوع من هذه الأنواع هو نصف عدد النوع فهذا التصنيف في كل هذه الأصناف دليل على معرفة أمور المستقبل معرفة لا يتأتى صدورها إلا من الله .

١٠ – لغة القرآن سهلة ومدلولاتها تفهم على أيسر وجه ولا تتخللها كلمات أو تراكيب عويصة ومع ذلك فليس في الإمكان مجاراة أسلوبه .

وخصّ الباقلاني بقية كتابه بالتوسع في هذه الأمور يوردها منظمة حسنة التسلسل والتنظيم قوية الارتباط والكتاب يعدّ بحق الحلقة الوسطى في سلسلة الأبحاث التي تسعى لإثبات إعجاز القرآن . والتصانيف الأخرى التي تحمل أفكار سابقيه تنتهي اليه ثم تتفرع منه في شعب مختلفة .

وتبين من تلخيصنا له قيمته وشمول بحثه والمامه بما قيل حتى زمنه وتناوله لأكثر الآراء بالنقد ويظهر لك من مقارنة المؤلف بين ما ينسبه العرب الى الجن من أقوال وبين القرآن ثم من قوله بفكرة التنصيف في حروف أوائل السور أنه يتناول الأمور أحياناً تناولاً سطحياً لا نوافقه عليه لأنه بعيد عن الروح العلمية التي لا تثبت لها مثل هذه الآراء ، وتدرك أن النظريات الاسلامية في الإعجاز قد أخذت في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس نوعاً من الاستقرار سرى على الأعصر التالية فإن علم الكلام كان قد تكامل في هذا الوقت وجهود المتكلمين المتأخرين انتهت الى هذا البناء الذي تم وضعه .

ينتقد الرافعي كتاب الباقلاني (ص ١٥٥ إعجاز القرآن للرافعي) برغم اعترافه بعظم شأنه بما انتقد به الباقلاني الجاحظ فيقول : « على أن كتاب الباقلاني وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذّبه وصفّاه وتصنع له إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ : « فلم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ومرجع الإعجاز فيه الى الكلام والى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل ... واستراح الى النقل » وهو يذكر أنه لم يقم بما أخذ على نفسه القيام به ولكنه لا ينكر قيمة الكتاب من حيث وفاؤه بما قصد اليه من أمهات المسائل .

(يتبع) نعيم الحمصي

تاريخ علم الفلك في العراق

وعلاقاته بالأقطار الاسلامية والعربية

(في العهود التالية لأيام العباسيين)

من سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م الى سنة ١٣٣٥ هـ — ١٩١٧ م

— ١ —

كلمة

كنت جمعت مذكرات في علم الفلك وما يتعلق به من علوم رياضية وتنجيم، فتكونت منها مجموعة في تاريخ هذا العلم الا أني لم أقطع بها، فكانت جولتي الأخيرة في ربوع الشام سنة ١٩٥١ م مصروفة الى تحقيق هذا الغرض والتثبت من درجة اتصال هذا العلم بالقطر الشقيق. ولولا فلم تكن جولة سائح يدون كل ما رأى، أو ما كانت فيه غرابة... بل زرت دمشق المحبوبة بأمل إكمال البحث بقدر المستطاع لينكشف أكثر اتماماً (للتاريخ العلمي) الذي كنت أحاول تدوينه.

وتختلف نظرتي عمن يحاول معرفة المفردات من الكتب وترتيبها على حروف المعجم، وعمن يجمع كلّ نوع أو صنف من صنوفها دون تنظيم عصورها، والتعرف لتاريخ تأليفها ووفيات مؤلفيها... ولا تعرف هذه العلاقة بما في خزائن الكتب وان كانت المستقى المهم. لذا كان للاتصال المباشر بالأقطار الأثر المحمود. ودمشق عاصمة ثقافية. وتتلوها حلب والقدس الشريف... وعلماؤنا متصلون بهذه الثقافة في رحلاتهم، واجازاتهم العلمية، وفي تلقيح المعرفة، فيتيسر من هذه الجولة الاطلاع على نواحي الاتصال المهمة جداً. يضاف الى ما كان عندي، أو ما هو مقتبس من خزائن العراق ومن فهارس الكتب أو من الجولات الاخرى.

حاولت انتزاع ما أمكن مما يتعلق بالشام خاصة اجابة لرغبة الأستاذ رئيس المجمع العلمي العربي ، وعددت من الواجب تلبية رغبته في (وصف المخطوطات) وهي كل التاريخ نظراً للاتصال الوثيق في الأقطار العربية والاسلامية · وفي هذه تحقيق الصلات الثقافية بين الشعوب العربية والاسلامية فعزمت أن أعين علم الفلك في العراق وعلاقاته المهمة بالشام وغيره مما تيسر في بحثه · لا سيما أن هذه الجولة مرتبطة بأصل البحث · وفيها علاقات جمة بل ان ذلك مما يؤكد الثقافة المشتركة ·

وفي بحثي حاولت أن أتصل الاتصال العلمي من وجوهه بقدر الامكان · ومن ذلك الاجازات · وكتب الفلك ظاهرة من ظواهر الثقافة · ومن الضروري التثبت منها · وكانت الخلفات الماضية خير غذاء · وعلى آثارها تجدد النشاط في الفلك · والمهم أن علماءنا قاموا بالمهمة ولم يظهر جديد · ولا ريب أن الاستيعاب صعب · ونواحي الايضاح مما يكشف نوعاً عن تاريخ المعرفة · والامل أن يتزايد الاشتغال ·

يعجب المرء أن يرى تقدم هذا العلم في أوائل هذه العهود كما كان في أيام العباسيين ، ويشاهد تجواله في الأقطار الاسلامية ثم يرى ركوداً وتدهوراً ، فلم يأخذ بما وصل اليه من تقدم في الغرب ولولا أن (المهندسخانة) في استنبول ، وأخذ الترك العثمانيين بالجديد من هذه العلوم لمات هذا العلم عندنا ولم يبق له أثر الا أنه في تجدده لم ينل تلك العناية المشهودة اليوم في الاستفادة منه للملاحة البحرية والطيران وتكوّن أنواع الرصد لتحقيق سير الكواكب وضبط حركاتها ·

وفي تاريخ هذا العلم أستعرض المادة العلمية وما فيها من مؤلفات ، والكتب التعليمية وما خدمت به لتسهيل الأخذ بهذه الثقافة ، والسبب الوحيد للقضاء على هذه الثقافة الفتن والاضطرابات المتوالية المستمرة ، فانها ألهت عن الالتفات

الى تقوية الثقافة . وزال المنشط من الدول ... فلم تتيسر العودة الى الهدوء والطمأنينة ، ولم تنشأ الأرصاد (المراصد) ، فيبذل لها البذل اللائق . واقتصر المرء على المعرفة (التعليمية) دون جدوى ، ولم يهتم بتكامل العلم .

حصل في هذه الأيام بعض الانتباه ، فظهرت مؤلفات مهمة مثل (علم الفلك وتاريخه عند العرب) ولكنه لم يف بما رسم ، فلم يصل الى نهاية القرن التاسع الهجري . و (التراث العلمي عند العرب) لا يخلو من غمز وان كان من أجل الآثار . و (قاموس الرياضيات) لم يكمل . ونقصه ظاهر وان كان أبدى مؤلفه معرفة وافرة ... و (آداب اللغة العربية) لم يتصل بثقافات العصور الموضوعة البحث ... وخزائن الكتب لم تنظم فهارسها ، أو لم يقم بها علماء استكملوا العدة ... فكل هذه لم تخل من نقص الا أنها بذرت المعرفة . ولها فضل كبير في اعداد الفرض .

كشفت هذه التجربة عن ثقافة عظيمة . فكان اشتغال علمائنا كبيراً . وقد عدت من الشام بصفقة رابحة فيما راجعت ، وفيما اقتنيت بما عين الحالة العلمية وما كانت عليه البلاد العربية والاسلامية .

والمهم ألا يهدأ البحث ويستمر في التعليق والاستدراك على ما فات وبذلك تتكامل الثقافة التاريخية . ولا ريب أن مؤلفات علم الفلك نماذج ناطقة بما عرضت . وكما زادت أعلنت عن زيادة في الثقافة . والكتب ظواهر . والعلوم لم تتصل بنا من كل وجه ، وانما حصل انقطاع أنسانا التعرف الى كثير منها . ورأيت مؤلفات مختلف الأقطار فكان لمخطوطات الشام علاقة بجميع الأقطار الاسلامية والعربية . ومثلها مخطوطات بغداد ، والمخطوطات الأخرى لمختلف خزائن الكتب . والأمل أن يتناول هذا البحث أساتذة أفاضل ليوفوه حقه من التوسع والايضاح والتعليق والاستدراك لما فات .

٢ – تاريخ علم الفلك في العراق في عهد المغول والتركمان

من سنة ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م الى سنة ٩٤١ هـ – ١٥٣٤ م

يصعب كثيراً أن نحيط بالمعرفة الفلكية في هذا العهد · فهي واسعة المدى متأثرة بالثقافة العباسية · ويهمنا الانتاج العلمي والأثر والتأثير أو العلاقة بالأقطار · فقد كان هذا العلم شائعاً في المملكة الاسلامية شيوعاً عظيماً · وقد روعي في (بناء بغداد) الطالع · والخلفاء العباسيون تأثروا بالفلك كثيراً · وكان معروفاً في العراق قبل الاسلام · وعناية الخلفاء العباسيين به كبيرة · والعبيديون اتخذوه عقيدة ومثلهم الاسماعيلية في ايران · وهو من فروع الفلسفة ومن أصول الابطان ·

ولما هاجم المغول العراق ، وعزموا على فتح بغداد استطلعوا أمر الطالع وما ألم ، فتضاربت الفتاوى العلمية في السعد والنحس وما عليه علم الاختيارات · وكان في صحبة هولاكو في هذا الفتح (حسام الدين المنجم) · أوصاه القاآن الأعظم ألا يخرج عن رأيه في الفلك ، فجمع هولاكو بينه وبين الخواجة الطوسي لما رأى من اختلاف بينهما ، فكان البخشية فى جانب الطوسي ، فرجع هولاكو قوله ومضى في طريق الفتح ، فتمّ له في ٥ صفر سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م ·

استعان المغول بعلمائنا في التنجيم أو علم الاختيارات المسمى بـ (علم الأحكام) وكان استولى هولاكو على بلاد الاسماعيلية في قهستان وألموت من ايران سنة ٦٥٤ هـ – ١٢٥٧ م وغنم منها آلات في الاسطرلاب والحلق وذات الكرسي ···

وعند فتح بغداد جيء بشهاب الدين سليمان شاه بن برجم من رجال الدولة العباسية · قال له هولاكو : لك علم بالتنجيم وسير الكواكب والسعد والنحس ، فكيف غاب عنك هذا اليوم الأسود ؟ فأمر بقتله · وهذا يدل على الاتصال بهذا العلم ، ولم ينقطع من الدولة العباسية ·

وفي جمادي الأولى سنة ٦٥٧ هـ – ١٢٥٩ م أمر هولاكو (ببناء رصد)

في مراغة تولاه الخواجة الطوسي ، وجلب له العلماء من مختلف الأقطار الاسلامية للاستعانة بهم . ومن العلماء الذين قاموا بهذه المهمة :

١ — الخواجة الطوسي نفسه .

٢ — الكاتب القزويني . من ايران .

٣ — ركن الدين الاسترابادي . من الموصل .

٤ — الفخر الخلاطي . من بتليس (بدليس) .

٥ — المؤيد العرضي . من دمشق .

٦ — الفخر المراغي . من الموصل .

٧ — محي الدين المغربي .

٨ — قطب الدين الشيرازي .

٩ — شمس الدين الشرواني .

١٠ — الشيخ كمال الدين الايجي .

١١ — حسام الدين الشامي .

١٢ — نجم الدين الاسطرلابي .

١٣ — صدر الدين علي ابن الخواجة الطوسي .

١٤ — نجم الدين الكاتب البغدادي .

١٥ — قومنجي (تومهجي) الصيني الملقب (سينك سينك) أي العارف .

١٦ — ابن الفوطي . .

١٧ — أصيل الدين حسن ابن الخواجة الطوسي .

وعلماء كثيرون من تلامذة هؤلاء عملوا في الرصد . ولا شك أن هؤلاء جمهرة من العلماء قلّ أن تملك أمة هذا العدد . وليسوا كل ما نملك . ولكل نصيب في هذا العمل . وللاحتكاك العلمي بهذه المجموعة قيمته العظيمة ، فظهرت مواهب هؤلاء ومن تبعهم فكانت ثروة لا تقدر . جمع الخواجة الطوسي بين معارف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أهل الأقطار ، فحصل التلقيح العلمي بنتيجة هذا الاحتكاك . ومع هذا نرى التقي محمد بن زين الدين معروف الراصد المتوفى سنة ٩٩٣ هـ يقول في كتابه (سدرة المنتهى) : ان الخواجة الطوسي لم يكن رصده ببراعة جيداً لاشتغاله بالوزارة وتسليمه الرصد الى من لا يساويه أو يقاربه في الفضيلة . وأعتقد أن هذا مبالغ فيه بل ليس بصواب لأن للزمن دخلاً في ظهور النقص في الزيج الايلخاني . لاتشعر به في حينه وانما يظهر بعد مدة طويلة كما ظهر أيام أولوغ بك . وهذا ظهر الخلل فيه أيضاً بعد مدة . وهكذا كان شأن الأزياج الأخرى . فهي في تعديل وتصحيح على الدوام حتى ظهرت الأزياج الجديدة بسبب اتقان آلاتها مثل زيج كاسيني ثم زيج لالاند ...

لم نستفد من العالم الصيني الذي اشترك في الرصد ولا من البخشية أي السحرة والروحانيين من المغول . وانما تكامل بعلمائنا وبما خلفناه من كتب . وكان ابن الفوطي من كتاب الزيج ولا يزال الزيج بخطه في خزانة باريس الوطنية . ولعله أصل الزيج الايلخاني . وكان خازن كتب مراغة . فنرى العلاقة بالعراق واضحة . وان المدارس العلمية ترعى الثقافة . والشام لا تقل عن بغداد . والمؤيد العرضي كان من أكابر علماء الفلك . ولا يزال أثره في الرصد وآلاته وأسباب عمله مشهوداً . ومنه نسخة في خزانة مدرسة السپهسالار . ورد ذكرها في (فهرس دانشكده معقول ومنقول) وكتب الجزيرة والشام جلبت الى مراغة وأضيفت الى خزانة كتبها . ويقدر المجموع بأربعمائة الف كتاب . وللأقطار العربية والاسلامية نصيب في الاشتغال في الرصد المذكور .

ونشأ علم الفلك في العراق أوائل الدولة العباسية ، وبنيت أرصاد . وعني بها عناية كبيرة . ومن بغداد انتشر في الأقطار ، فتكونت معاهد علمية ضارعت ما في الدولة العباسية . وزاد نشاطها في ايران وفي مصر والشام في عهد العبيديين .

وفي أيام المغول ازدهر علم الفلك بعد أن أصابته جفوة ، وبني الرصد ، وخصص له من ربع الوقوف (العشر) ، وظهر في العراق جماعة من علماء الفلك كانوا أقرب الى الاتصال بما جرى في ايران بل ان العراق وايران والمملكة التركية في ماوراء النهر وفي الأناضول متصلات بعضها ببعض ، وحكومتها واحدة ، والمطالب العلمية مشتركة لاسيما بغداد وكانت عاصمة الدولة المغولية في الشتاء كما كانت تبريز عاصمة المغول صيفاً ، ويعول غذاء العراق على مخلّفات أسلافه ، ولم يغفل عن التطور الجديد بفضل المدارس وما فيها من أساتذة .

١ — مشاهير علماء الفلك في العراق أيام المغول والتركمان :

١ — الخواجة نصير الدين الطوسي :

هو الخواجة نصير الدين محمد بن محمد الطوسي . كان رأساً في علم الفلك والرياضيات والتنجيم في بلاد الاسماعيلية النزارية ، وفي ايران والعراق . ولد سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠١ م . وقد جمع العلماء من مختلف الأقطار للعمل في الرصد . وقام بنشاط علمي ، فتكاملت الثقافة وأثرت في الأقطار الاسلامية بعد أن كانت في خمود وخمول ، فيعدّ مجدداً لها . وهو صدر الوقوف ببغداد ولم ينقطع عن الاتصال بها .

ومن مؤلفاته في الفلك :

١ — مجموعة رسائله . وعدتها ١٦ رسالة . في مجلدين طبعت في مطبعة المعارف العثمانية في عاصمة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٥٩ هـ ومنها ما كان كتبه الخواجة ومنها ما كتبه رأساً . ومن هذه الرسائل جملة في خزانة المجلس الملي الايراني . وبينها مالم يحرّر . وعندي بعض المخطوط منها .

٢ — تحرير المجسطي في الهيئة . قدمه الخواجة الى حسام الدين بن حسن السيوامي في بلاد الأناضول عندي نسخة منه . ومنه نسخ في خزانة أياصوفيا . والأصل لبطلميوس . نقله كثيرون الى اللغة العربية . ومن شروحه :

١) شرح شمس الدين السمرقندي . منه نسخة في خزانة المجلس .
٢) شرح لبعض المتأخرين لم يتعين مؤلفه . أوله : الحمد لله الأول بلا ابتداء ...
٣) لخصه ابن أبي الشكر المغربي . ألفه لأبي الفرج ابن العبري صاحب تاريخ مختصر الدول .
٤) تفسير التحرير . للنظام الأعرج النيسابوري فرغ من تأليفه سنة ٧٠٤ .

٣ — تحرير أوقليدس . في الهندسة والحساب . منه نسخة في أياصوفيا وأخرى في خزانة المجلس . وعندي نسخ عديدة منه . نقله الى العربية كثيرون فجاء هذا التحرير مهماً .

٤ — التذكرة في الهيئة . جامعة لمسائل الفن . ولم يقل الاشتغال بها إلا بعد ظهور (الملخص) للجغميني . ومن شروح التذكرة :
١) شرح الشريفي . من العلماء المعاصرين للخواجة .
٢) شرح قطب الدين الشيرازي .
٣) شرح النظام الأعرج . ويسمى (توضيح التذكرة) . ومنه نسخ في الأزهر وفي المجلس الايراني . وعندي نسخة أيضاً كتبت سنة ١١٣٨ هـ .
٤) شرح الشريف الجرجاني . ومنه نسخ في خزانة الآثار ببغداد وفي برلين وأياصوفيا .
٥) شرح البرجندي . منه نسخة في المجلس الايراني .
٦) شرح الخفري . اعتمد شرح الشريفي ونقل منه ومن غيره . وسماه (التكملة في شرح التذكرة) . منه نسخة في خزانة الآثار ببغداد .

٥ — الزيج الايلخاني . اشترك فيه جماعة . كتبه بالفارسية . ونوه باسم جنكزخان وأولاده وصرح باسم السلطان هولاكو . قال الخواجة : انه من طوس . وصار الى همذان . فأخرجه هولاكو من هناك ، واختاره لعمل الرصد ، نطلب العارفين به . وكانت الأزياج قبله كثيرة . والمعروف أو الموجود منها :
١) زيج البتاني . ويقال له (زيج الصابي) أو (الزيج الجامع) . طبع

في روما سنة ١٨٩٩ م . وجاء كوشيار فأوضح ما فيه وسماه (اللامع في أمثلة الزيج الجامع) .

٢) الزيج الشامل . للبوزجاني .

٣) الزيج الحاكمي . لابن يونس . منه نسخة في الخزانة الأهلية بباريس .

٤) زيج حبش . منه نسخة في خزانة برلين . وله ثلاثة أزياج . الممتحن ومنه نسخة في (ينى جامع) وفي كمبرج ، والمأموني على مذهب (سند هند) ، وزيج الشاه . وهو الزيج الصغير .

٥) زيج الخوارزمي .

٦) الزيج السنجري . منه نسخة في الفاتيكان . وهو لعبد الرحمن الخازني .

٧) زيج عمر الخيام . ويقال له (الزيج الملكشاهي) .

٨) زيج المجريطي .

٩) زيج أبي القاسم بن محفوظ المنجم البغدادي . منه نسخة في خزانة باريس الأهلية . وقد وهم صاحب (گاه شماري) في أنه كان تأليفه سنة ٦٨٣ هـ — ٦٨٤ هـ . فان هذا التاريخ يشير الى زمن نسخه .

وهناك أزياج أخرى ذكرها صاحب (علم الفلك وتاريخه عند العرب) ، وصاحب (التراث العلمي) ، وصاحب (گاه شماري) وصاحب (كشف الظنون) . كان من آخرها (الزيج الشاهي) والظاهر أنه كتبه لإمام الاسماعيلية في ألموت ركن الدين (خورشاه) . اختصره نجم الدين ابن اللبودي . وسماه (الزيج الزاهي) . وله أيضاً (الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب) .

هـذا والزيج الايلخاني منه نسخ عديدة . منها نسخة رأيتها عند الأستاذ أحمد عبيد صاحب المكتبة المعروفة بدمشق . ومنه نسخة في الظاهرية ، وفي كمبرج ، وفي الخزانة الوطنية بباريس وهي بخط أصيل الدين حسن ابن الخواجة الطوسي . وعلى هذا الزيج نظرات علمية عديدة لما أحرز من مكانة .

١) شرحه حسين بن محمد النيسابوري القمي المعروف بـ (نظـام) وسماه (كشف الحقائق) .

٢) شرحه حسن بن حسين شاه السمناني سنة ٧٩٦ هـ ، ومنه نسخة في خزانة لندن .

٣) لخصه علي شاه بن محمد بن القاسم المعروف بـ (علاء المنجم) الخوارزمي . وسماه (عمدة الايلخانية) .

٤) زيج الوابكنى . كتب زيجه على أساس الزيج الايلخاني . وسماه (الزيج المحقق السلطاني على أصول الرصد الايلخاني) منه نسخة في اياصوفيا . وينسب الى القطب الشيرازي .

ومن الأزياج :

١ — الزيج الأشرفي . فارسي منه نسخة في الخزانة الوطنية بباريس . ألفه سنة ٧٠٢ هـ .

٢ — الزيج الخاقاني في تكميل الزيج الايلخاني . فارسي . لغياث الدين جمشيد الكاشي . عندي نسختان منه احداهما تنقص الورقة الأولى . والأخرى كاملة .

وهذه الأزياج والشروح جاءت مكملة وموضحة أو مختصرة للزيج الأيلخاني ولم ينسخ الزيج الايلخاني الا بالزيج الأولوغ بيكي على ما يأتي في محله .

٦ — الزبدة في الهيئة . من مؤلفات الخواجة . فارسية . طبعت . ومنهـا نسخة خطية في المجلس الايراني .

٧ — بيست باب . فارسي في الاسطرلاب . عندي مخطوطة منه . ومنـه في أياصوفيا وخزائن كتب عديدة . ومن شروحه :

١) شرح البرجندي . ومنه نسخة في خزانة المجلس .

٢) لخصه البهاء العاملي ولم يشر الى ذلك . ونقل الداغستاني الى العربيـة رسالة البهاء ولم يصرح باسمه .

وفي المجمع العلمي في بطرسبورج آلة اسطرلاب تعزى الى الخواجة الطوسي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأنه كان يعمل بها . واذا صح فهي من غنائم الموت من الاسماعيلية هناك كانت مما غنمه منهم عطا ملك الجويني حين فتح هولاكو بلادهم سنة ٦٥٤ هـ .

٨ — الرسالة المعينية في الهيئة . وتسمى بـ (المفيد) . ونسخه في المجلس الايراني وغيره . وطبعت في ايران .

٩ — رسالة حلّ ما لا ينحل . في توضيح الرسالة المعينية . طبعت أيضاً .

١٠ — كتاب الثمرة . ترجمه الى الفارسية باشارة من الصاحب بهاء الدين محمد الجويني . وان احمد بن يوسف الطولوني المهندس شرحه باللغة العربية .

١١ — سي فصل . فارسي في الهيئة والتقويم . وشرحه :

١) بدر الدين الطبري سنة ٨٢٤ هـ .

٢) ميرزا محمد رضا المستوفي المعاصر للشاه عباس الأول . الفه سنة ١٠٦٩ هـ منه نسخة في خزانة المجلس .

٣) كتاب ربيع المنجمين . فارسي منه نسخة في المجلس الايراني .

١٢ — المختصر في علم التنجيم ومعرفة التقويم . منه نسخة خطية باللغة العربية لم يعرف شارحها في خزانة برلين .

١٣ — رسالة مختصرة في الاسطرلاب . فارسية تحتوي على ١٥ فصلاً . عندي مخطوطة منها ضمن مجموعة .

هذه أشهر مؤلفات الخواجة الطوسي . ويعدّ من أكابر المشتغلين بالفلك والرياضيات من فروع الفلسفة الأفلاطونية . قطع الاسماعيلية بصحة هذه العلوم واعتبروها عقيدة فلم ينفك منها الطوسي . والغرض المعرفة العلمية . وهي حاصلة . وكان هولاكو يعتقد بصحة التنجيم مثلهم . ولذا قربه هولاكوخان . وتظهر قيمة مؤلفاته من عناية كثير من العلماء بها . واذا كانت فقدت هذه العلوم مكانتها العلمية بعض الشيء فانها لم تفقد مكانتها التاريخية . ولا صلتها بالعقائد الغالية . وعلاقة الخواجة الطوسي بالعراق تبدأ من أيام اكتساح هولاكو

العراق ودامت متصلة ، فنال منصب صدر الوقوف بعد الأستاذ صفي الدين الأرموي . ورد العراق مراراً وأخذ كتبها لخزانة رصد مراغة .

٢ — رضي الدين بن طاووس :

لم تكن الرغبة في التنجيم بسبب المغول . وكذلك الأمر في علم الفلك . وانما تمكنت من أوائل الدولة العباسية أيام الخليفة ابي جعفر المنصور . ولم تكن عقيدة بل ساق الى قبولها الدافع العلمي ، وصارت تعتبر عقيدة عند الباطنية أمثال الاسماعيلية في ألموت وفي رجالم الآخرين . وهكذا كان شأنها في أيام المغول ، فلم يخرجوا عن أحكام النجوم وما يوحيه التنجيم .

ومهما كان الاتجاه علمياً أو مذهبياً فلم ينقطع هذا الاتجاه بالتنجيم حتى أواخر الدولة العباسية وجاء المغول فزادوا العناية به . والعراق لم يخل من أمثال هؤلاء ممن اشتركوا في بناء الرصد . وممن ذكرت له المعرفة بالتنجيم الموفق ابن الفوطي . ومال الى ذلك كثير من العلماء . ولعله مقرون بالفلك ملازم له . ومن هؤلاء (رضي الدين علي بن طاووس) .

كان من العلماء المعروفين . وله اشتغال بالتنجيم وتاريخه . ذكرته في تاريخ العراق بين احتلالين . ومن مؤلفاته :

١ — فرج المهموم في أحكام النجوم . فيه فوائد تاريخية . وطبع في النجف إلا ان طبعته مغلوطة .

٢ — الملاحم والفتن .

وفي الذريعة جاء ذكر مؤلفاته في مختلف مجلداتها . توفي سنة ٦٦٤ هـ عن نحو ٧٣ عاماً [1] .

٣ — أبو الحسن اليشكري :

هو علاء الدين ابو الحسن علي بن محمود بن حسن بن نبهان بن سند اليشكري

(١) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٢٦١ .

الربعي البغدادي الأصل البصري المولد . كان منجماً وشاعراً . ولد سنة ٥٧٥ هـ . وكانت له اليد الطولى في الفلك وحل التقاويم مع النظم وحسن الخط . توفي سنة ٦٨٠ هـ بدمشق (١) .

٤ — ابراهيم بن ممدود الجلاد الموصلي :

أستاذ في الفلك . عثرنا على تقريظ له لكتاب (منهج الطلاب في العمل بالاسطرلاب) . وهذا الكتاب للملك الأشرف عمر بن الملك المظفر يوسف من سلاطين الدولة الرسولية . قرظه المترجم سنة ٦٩٢ هـ وقبلها ، فقال :

« شهدت له بالجودة في الصناعة ووضعت له خطي هذا شاهداً على صحة ذلك . وأجزت له أن يعمل ما شاء من الاسطرلابات . فهو عندي صحيح العمل لما وثقت من جودة معرفته وذكائه وفطنته واختباري له من ذلك . » اهـ (٢) .

ومنه نسخة في خزانة المجلس الايراني ، وأخرى في خزانة الأستاذ احمد تيمور باشا رحمه الله . وممن قرظه حسن بن علي القهري المظفري نسبة الى الملك المظفر والد المؤلف (٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥ — نور الدين الساعاتي :

هو علي بن تغلب الساعاتي . والد صاحب مجمع البحرين في الفقه الحنفي (أحمد ابن الساعاتي) . كان يتولى تدبير الساعات في المستنصرية . ولد سنة ٦٠١ هـ . وعمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد . وكان مشتهراً في الهيئة والنجوم وعمل الساعات .

وجاء وصف هذه الساعات في الكتاب المنسوب الى ابن الفوطي بما نصه :

« وصوّر فيها — في المستنصرية — صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطافاً ،

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٧ والسلوك للمقريزي ج ١ ص ٧٠٥ وتاريخ العراق ج ١ ص ٣٠٣ .

(٢) خزانة المجلس الايراني ج ٢ ص ٨١ .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٢٧ ص ٥٢ وهناك تفصيل .

لها أبواب لطيفة . وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءهما بندقتان ، وكل ما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات . والباب من ذهب ، فيصير حينئذ مفضضاً . واذ وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعها ، ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء ازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها ، وتغيب مع غيبوبتها . فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها . كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر . ثم يبتدئ في الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة . ونظم الشعراء بذلك أشعاراً ...» اهـ[١] .

٦ — ظهير الدين الكازروني :

عالم بغدادي مؤرخ كاتب له عناية كبيرة بالعلوم الرياضية لا سيما الحساب . وهو الشيخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني . كان حيسوباً . وعرفت له مزايا علمية وأدبية وتاريخية ومن مؤلفاته في الرياضيات :

١ — كنز الحساب . في مجلد واحد . جاء ذكره في كشف الظنون باسم (وكر الحساب في الحساب) . والأصل هو المعروف . وأعتقد أن الثاني تصحيفه . توفي سنة ٦٩٧ هـ — ١٢٦٧ م[٢] .

٧ — أصيل الدين ابن الخواجة الطوسي :

من الأفاضل . كان له اطلاع كبير في (الاختيارات) أو (الأحكام) . فهو من أهل التنجيم البارزين . تلقى من والده ، وسكن العراق أمداً طويلاً . وتوفي سنة ٧١٥ هـ[٣] .

---

(١) التاريخ المنسوب للفوطي ص ٨٣ وفي رحلة ابن جبير وصف مثل هذه الساعة.
(٢) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٣٨٠ وطبقات السبكي ج ٦ ص ٢٤٢ والدرر الكامنة ج ٣ ص ١١٩ .
(٣) عقد الجمان والشذرات ج ٦ ص ٣٥ وتاريخ العراق بين احتلالين ج١ ص٤٣٧ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨ — ركن الدين الاستراباذي :

تلميذ الطوسي . أبو الفضائل . كان يعيد دروس النصير في الحكمة . واشترك في الرصد . ويعد من أكابر رجال الفلك المعدودين . وفي الشذرات ان الطوسي جعله رئيس أصحابه ببراغة . وبعيد دروس الحكمة . ثم انتقل الى الموصل ، ودرّس بالنورية . وذكر وفاته في سنة ٧١٥ هـ وفي حوادث سنة ٧١٨ هـ . وفي (الفلاكه والمفلوكون) بيّن هذا التاريخ [١] .

٩ — الخطائي البغدادي :

العلامة الحكيم علاء الدين علي بن تبان بن مختار البغدادي . ويعرف بالخطائي . كان فاضلاً في العلوم الرياضية والطب . سكن حماة وقرأ عليه ملكها المؤيد اسماعيل بن علي كتاب (التذكرة) في الهيئة للخواجة الطوسي [٢] . وله :

١ — تقويم الكواكب السيارة . ورد في خزانة جامع الأزهر (الحطابي) . وصوابه الخطائي . أوله : الحمد لله تعالى . اعلم ان طريق التقويم من هـذه الجداول ... والمعتقد ان مما يتمه (جداول اتصالات الكواكب السيارة) . ومنه نسخة في الجامع الأزهر أيضاً .

١٠ — ابن الخوام البغدادي :

طبيب ورياضي فلكي . وهو من أكابر العلماء في الرياضيات . ولم يذكر في التراث العلمي . وانما نعته بالبغدادي ولم يكن من عصر الخواجة الطوسي . ومن مؤلفاته :

١ — كتاب الفوائد البهائية في القواعد الحسابية . وشرحه :

١) كمال الدين حسين الفارسي وسماه (أساس القواعد في أصول الفوائد) .

---

(١) الشذرات ج٦ وتاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص٤٣٦ والفلاكه والمفلوكون ص ١١١ وتاريخ العبر للذهبي .

(١) تاريخ العراق بين إحتلالين ج ١ ص ٤٥٩ عن عقد الجمان ج ٢٢ .

٢) عبد العلي البرجندي . فرغ منه سنة ٨٩١ هـ .

٣) يحيى بن احمد الكاشي وسماه (ايضاح المقاصد في الفرائد الفوائد)(١) .

١١ — ابن الفوطي :

من أكابر المؤرخين . اشتغل مع الطوسي ، وتولى ادارة خزانة مراغة . وبخطه كتب زيجاً عربياً . ونسخته في الخزانة الوطنية بباريس الا أنه لم يعرف واضعه أو مؤلفه . ولم نقف على اشتغاله في الفلك . وجاء في الشذرات أنه أسر في واقعة بغداد . وخلصه الخواجة الطوسي وأخذ عنه علوم الأوائل . برع في الفلسفة وغيرها وأمدَّه بكتابة الزيج وغيره من علوم النجوم(٢) .

وهكذا لم ينقطع الاتصال بالفلك أيام المغول حتى انقراضهم . ومن ظواهر هذا العهد:

١ — رغبت الدولة في الميل الى التنجيم مع أنه مما ينكره غالب العلماء ، فتوسع الانصال به .

٢ — بني الرصد في مراغة ، فصار يبذل في سبيل اكماله مبالغ طائلة وخصص له من غلة الأوقاف العشر .

٣ — وضع الزيج الايلخاني . وكان من نتائج عمل الرصد . ونال عناية من بعض العلماء .

٤ — ظهرت مؤلفات عديدة في الفلك وتجلت مواهب لا تحصى من جراء الجهود المتعاضدة المجتمعة .

٥ — وضع (التاريخ الايلخاني) أيام السلطان محمود غازان . وهذا التاريخ ابتدأ السنة الأولى من ١٣ رجب سنة ٧٠١ هـ — ١٣٠٠ م ، وصار يعتبر السنة الأولى . وجرى العمل به في الأمور المالية . وكانت حاولت الدولة العباسية جعل ما سمته بـ (السنة الخراجية) متصلة بالهجرية بطريق الازدلاق أو الازدلاف في كل ٣٣ سنة واخرى مثلها . ثم في ٣٤ سنة أي كل مائة سنة ثلاث سنوات .

(١) تراث العرب العلمي وكشف الظنون .

(٢) التعريف بالمؤرخين . لكاتب المقال لا يزال مخطوطاً وشذرات الذهب ج٦ ص٦٠

وهكذا الأمر في (الأيام المسترقة) بسبب بعض الأيام الكبيسة وغيرها . وهو من نوع (الزحف) للموظفين باصطلاح هذه العهود الا أن هذا لم ينجح في معاملات الناس . وكانت التواريخ قبله بالسنة اليزدجردية ، وبالسنة الجلالية أو الملك شاهية نسبة الى جلال الدين ملكشاه السلجوقي . وجرى العمل على التوفيق بين السنين الهجرية والشمسية في العهد العثماني . ولم يعترف بالسنة الايلخانية وكانت تسمى بالسنة المالية . ويقال للازدلاق عندهم (سيويش) فلم تنجح في الاتصال بهذه السنين فحصل التفاوت بينها وبين السنين الهجرية بسبب اهمال هذا الازدلاق حتى قررت قبول (السنة الافرنجية) او (السنة الميلادية) مع السنة الهجرية للأعياد والمواسم الدينية .

ومثلها ايران قبلت السنة (الهجرية الشمسية) . وفي الأقطار العربية جرى الأمر على التاريخ الميلادي والهجري معاً . ويطول البحث في تاريخ السنين الشمسية والتوفيق بينها وبين السنين الهجرية . وللايرانيين كما لليهود والقبط والغربيين أيضاً طرق خاصة في هذا الباب والفصل بين التاريخين أسهل وأبسط الا ان استعمال السنة الميلادية فيه نظر . وكان الأولى أن يستعمل التاريخ الهجري القمري على حدة والشمسي الهجري على حدة .

٦ — ضربت النقود في أيام السلطان أبي سعيد من سلاطين المغول على السنين الايلخانية في السنة الثالثة والثلاثين منها . وفي السنة الرابعة والثلاثين . وهذه الأخيرة قوبلت بالهجرية . ولم نجد من ضرب بعدها مراعياً التاريخ الايلخاني . وهو على السنين الشمسية . فلم ينجح .

٧ — ظهرت مؤلفات عديدة في الفلك باللغة الفارسية . وكان الغالب اللغة العربية وهي لسان العلم الا أنه لم ينقطع الاشتغال باللغة العربية والاتصال بمؤلفاتها . ثم تلتها المدونات باللغة التركية بعد هذا العهد . وفي هذا لم يتبدل المصطلح باللغة الغربية . (يتبع) عباس العزاوي

أقدم تأليف في الحديث النبوي

صحيفة همّام بن منبّه ومكانتها في تأريخ علم الحديث

تمهيد

لا يعرف قدر الشيء إلا مالكه . وغير المسلمين لا يقدرون الحديث النبوي وما يتعلق به من أصول الرواية والدراية حق قدره . لأنهم لم يعنوا بأحاديث أنبيائهم كما عني المسلمون بحديث نبيهم لذلك كان أكبر همهم عدم العناية بالحديث الاسلامي والطعن في صحته جهلاً وحسداً .

وليس عجباً أن العرب لم يعتنوا في جاهليتهم بالتدوين والكتابة بخلاف عنايتهم بها بعد أن أسلموا وآمنوا بالله وحده ؛ ولكن الذي يدعو الى العجب أن الأمد الذي انقضى بين جاهليتهم وبين اعتنائهم بأصناف العلوم كان من أقصر ما عرفه التأريخ الإنساني لمثل هذا التطور السريع حتى إن ذلك ليدهش المؤرخ . فلم يكن في مكة ، لما بعث النبي ﷺ ، إلا بضعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون . وعددهم في المدينة المنورة أقل من ذلك . وصارت العربية من أغزر لغات العالم علماً وأدباً منذ القرن الثاني للهجرة . فكيف كان هذا ؟

بدأت الحكومة الإسلامية في السنة الأولى للهجرة ولم تشمل حينئذ إلا جزءاً من المدينة المنورة ؛ أما سائرها فكان في أيدي اليهود أو العرب المشركين . وكان في جزيرة العرب مئات من القبائل ، أي مئات من «الدول المستقلة» لا تخضع واحدة لأخرى . ولم تشتمل الحكومة الاسلامية قبل هدنة الحديبية في أواخر السنة السادسة للهجرة إلا على بضع مئات من الأميال المربعة من الأرض .

ولكن هذه الدولة الاسلامية كانت قد امتدت عند وفاة النبي ﷺ ، بعد خمس سنوات ، الى مساحة تنيف على مليون من الأميال . وما انقضت بعد ذلك خمس عشرة سنة حتى دخل الجند الاسلامي في خلافة سيدنا عثمان (سنة ٣٦ هـ) الأندلس من جهة على ما روى الطبري [١] ، بعد أن اخضعوا جميع شمالي إفريقية وتجاوز جيحون الى ما وراء النهر من جهة ثانية [٢] ؛ أما في الجنوب فقد بلغت هذه الجنود ، منذ خلافة سيدنا عمر الفاروق على ما روى البلاذري [٣] ، موانئ تانه (بمباي) ودَيبل (كراتشي) ، وفي الشمال أرمينية وما وراءها [٤] .

ولم يكن عند العرب حينئذ عدد ولا عدّة كما كان عند من ناوشوهم من الروم والفرس وسائر العجم . وكذلك لم يعرفوا فنون الحرب والقتال المعروفة عند أعدائهم . وفوق هذا كله ، لم يخرجوا من بيوتهم وأخبيتهم لمجرد النهب والغارات الجاهلية ، بل لتكون كلمة الله هي العليا . فعاداتهم الطبيعية وتربيتهم الإسلامية هي التي ساعدتهم على الوصول إلى غايتهم . ففتوحات السيف وفتوحات القلم ليست لديهم إلا مظهر أمر واحد وداع واحد .

ولسنا بصدد الكلام على سياسة السيف وكيفية نشأتها وارتقائها ؛ فلنقصر الكلام على سياسة القلم والعلم في فجر الاسلام .

اهتمام النبي بنشر التعليم :

من المعروف أن نبي الإسلام كان أمياً ، وقد شهد بذلك القرآن فقال : «ما كنت تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون» . وأول وحي أوحي اليه اشتمل على أمر الله أن : «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من عَلَق . اقرأ ،

---

(١) تاريخ الطبري ، ص ٢٨١٧ وما بعد (طبع اوربا) .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبع اوربا) ص ٤٠٨ ، ووافقه تواريخ أهل الصين.
(٣) فتوح البلدان ص ٣٤٨ .
(٤) تاريخ الطبري ، ص ٢٨٢٧ (في السنة ١٩) .

وربك الأكرم الذي علّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم » . فالأمر بالقراءة وتمجيد أوصاف القلم والكتابة ، هذا ما شرع به الاسلام لمتبعيه . فكان سيدنا محمد « في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ، فينوّر أذهانهم كما يصفي أخلاقهم في الوقت نفسه . وكذلك كان يأمر بكتابة آيات القرآن وسوره المنزلة الى ذلك الزمان .

فلم يسمعه إلا قليل من أهل بلده ، وبدأوا يؤذونه ومن تبعه في الله . فلما بلغ سيل المحن الزّبى ، هاجر مع من استطاع الى المدينة ووضع هناك أساس دولة . فنزلت سورة البقرة في أول ما نزل بعد الهجرة ، ونزل فيها آية المداينة المعروفة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين الى أجل مسمى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ... ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا » الآية .

فلم يزد إلا اعتناء بالكتابة والعلم .

وأول ما بدأ به الرسول من العمل كان بناء المسجد النبوي وجعل في هذا المسجد صُفّةً ليقيم فيها طلاب العلم . وعين أساتذة يعلمون فيها الكتابة والقراءة ومسائل الدين الى غير ذلك فكان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلمهم الخط (١) . وكذلك روي عن سيدنا عبادة بن الصامت أنه أمره النبي ﷺ أن يعلم الناس الكتابة ويقرئهم القرآن في الصفة (٢) .

ولم يمض على ذلك سنة حتى كانت وقعة بدر : زاد عدد المسلمين فيها ثلاثة أضعاف عدد العدو ، وأسروا عدداً كثيراً منهم . ومن غريب ما عومل به

---

(١) استيعاب ابن عبد البر ٣٩٣٢ ، التراتيب الادارية للكتاني ٤٨/١ . وقال : « وكان كاتباً محسناً » . راجع أيضاً الاصابة ترجمة الحكم بن سعيد بن العاص .

(٢) الكتاني ٤٨/١ عن سنن أبي داود .

الأمري أنه أذن لمن كان منهم كاتباً ان يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة، فداء لنفسه [١] وقد بوّب بعض قدماء المحدّثين هذه الواقعة فعنونها «جواز المعلم المشرك». وحقّ له. ولم يكن هذا حادث حدث، بل كان مطابقاً لسياسة مستمرة في نشر التعليم. وكثيراً ما كان يقول النبي «بعثت معلماً» [٢]. وكان يأمر الصبيان أن يتعلموا من جيرانهم [٣] وأن يتدارسوا في مسجد حارتهم [٤]. وذكر البلاذري [٥] «أنه كان بالمدينة تسعة مساجد فكانوا يصلون فيها ويجمعون مع رسول الله». ويروى أن أهل جواثا (في منطقة عُمان والبحرين) بنوا مسجداً فكان أول مسجد بعد ما كان في المدينة. وكان قد كتب اليهم أن «خطوا المساجد كذا وكذا وإلا غزوتكم» [٦]. وكذلك لما بعث عمرو بن حزم رضي الله عنه عاملاً الى اليمن، كتب له أوامره وفيها أوامر لنشر التعليم [٧]. وذكر الطبري [٨] في أحوال سنة ١١ أن النبي ﷺ كان قد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن ناظراً للتعليم فكان يتنقل من عمالة الى عمالة ويراقب المدارس.

ولم يكتف بتعليم الرجال، بل اعتنى بالنساء، كما اعتنى بالرجال. فأم المؤمنين حفصة بنت عمر كانت كاتبة في حياة النبي على مارواه ابو داود. ولا نحتاج الى تفصيل طويل لهذه الناحية سوى أنه كان من نتائج هذه السياسة في شأن تعليم

(١) طبقات ابن سعد ٢/١، ص ٤، روض الانف للسهيلي ٢/٩٢، مسند ابن حنبل ٢٤٧/١.

(٢) ابن ماجة، باب فضل العلماء: مختصر بيان العلم لابن عبد البر، ص ٢٥.

(٣) الكتاني ٤١/١ عن الاصابة ومجمع الزوائد.

(٤) ابن عبد البر، ص ١٤.

(٥) أنساب الاشراف (مخطوطة القاهرة) ٤٢٠/١.

(٦) راجع كتابي الوثائق السياسية رقم ٧٧.

(٧) الوثائق السياسية، رقم ١٠٥، عن ابن هشام والطبري.

(٨) تاريخ الطبري (طبع اوربا) ص ١٨٥٢ — ١٨٥٣، ١٩٨٣.

النساء أن المسلمات أصبحن فيما بعد يبارين الرجال في ميادين شتى من العلم .
ويرى القارئ أن بين السماعات التي توجد على المخطوطة الدمشقية من صحيفة همام ابن منبه ، التي نحن بصددها ، سماعاً على معلمة وهي ام الفضل كريمة بنت ابي الفراس نجم الدين القرشية الزبيرية . بمنزلها وكذلك كتاب الأموال لأبي عبيد ، الذي هو في الأمور المالية الدقيقة من موارد الدولة ومصارفها ، يبتدئ بعد البسملة ، بهذه الكلمات : « قرئ على الشيخة الصالحة الكاتبة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر احمد بن الفرج بن عمر الإبري الدينوري بمنزلها ببغداد » . ولا نحتاج للقرون الابتدائية إلا أن نرجع الى أسانيد الرواة من كتب الحديث للصحابيات والتابعيات ومن تبعهن .

تدوين الحديث :

فهذه نماذج من أثر السياسة النبوية في أمر العلم عامة . أما الحديث فهو ما يهمنا خاصة . ومرادي بالحديث حديث الرسول ، وهو يحتوي على أقواله كما يحتوي على ذكر ما فعله بنفسه او قرر ما فعله غيره من أصحابه فلم ينكره ، فهذا التقرير والتصديق ، له مكانة قانونية ، كأنه فعله الذي قرّره .

والأمر الوحيد الذي يشغلنا ههنا هو مسألة الثقة بكتب الحديث ، لاغير . فان الكتاب الذي ننشره اليوم ، أعني صحيفة همام بن منبه ، هو أيضاً تأليف جمع فيه أحاديث النبي ﷺ .

من المستحيل البديهي أن يكتب ويدوّن جميع ما قال النبي أو فعله أو قرره ، فهذا من وظائف الملائك « كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » . وكذلك لن يصح القول أنهم لم يكتبوا شيئاً ، فان الحقائق على خلافه . وعلى كل مادونته هذه الأمة الأمية وما كتبته من أحاديث نبيها يفوق بكثير ما كتبت أمم أخرى عن أنبيائهم ، كما فاقت عليها ، في إبان أمرها ، في أمر فتوح البلدان ونشر الدين في القارات .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا بأس أن نشكك تشكيك سائل ونرتاب في هذا الأمر فلا نقرر إلا مالا مجال لنا لإنكاره . فماذا كتبوا من الأحاديث في أول أمرهم ؟

الحديث المكتوب في العهد النبوي :

(أ) لما هاجر المسلمون من أهل مكة إلى المدينة ، أقاموا هناك أساسَ مملكةٍ ودولةَ مدينةٍ (Cité - Etat) وكان يشاور النبي ﷺ أهاليها وسكانها من المهاجرين والأنصار واليهود وسائر من لم يسلم حينئذ من عرب المدينة ، فسجل دستور دولة — وهو أول دستور مملكة كتب ودون في العالم بأجمعه[1] — وذكر فيه حقوق الحاكم والمحكوم عليه وواجباتهما . فبدأ :

« هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم امة واحدة من دون الناس . . . » الخ[2] .

فيقول « هذا الكتاب » ، ولا بد أن يكون مكتوباً محرراً . وكرر خمس مرات في نفس الدستور كلمة « أهل هذه الصحيفة » . وقال كذلك « لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم » . وقال « إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة » ؛ ولكن يفصل حدود الحرم اليثربي . قال ابن حنبل في مسنده[3] : « عن رافع بن خديج . ان المدينة حرمٌ حرّمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني » . وكان من واجب السياسة أن يحدد حدود المملكة وأرض دولتها فأرسل من يبني أعلام الحدود كما روى المطرزي في « ما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة »[4] فقال : « عن كعب

---

(١) الوثائق السياسية ، رقم ١ ، عن ابن هشام وابي عبيد وغيرهما . راجع مقالتي « اول دستور مسجل في العالم » في تقريرات مؤتمر دائرة المعارف بحيدر آباد .
(٢) الوثائق السياسية رقم ١ .
(٣) ج ٤ ، ص ١٤١ ، رقم الحديث ١٠ .
(٤) مخطوطة مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابن مالك قال : بعثني رسول الله ﷺ أعلم على أشراف مخيض وعلى الحفيا وعلى ذي العشيرة وعلى تيم » الخ .

(ب) وكذلك أمر النبي ﷺ في أوائل الهجرة باحصاء المسلمين . فقد روى البخاري في صحيحه[١] أن النبي عليه السلام قال : « اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمس مائة رجل » ذكرانهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم . فكان إحصاء النفوس هذا أيضاً مكتوباً . والعدد الذي بلغ يدل أنه كان من السنة الاولى للهجرة .

(ج) بدأت الوثائق السياسية والمعاهدات الرسمية من قبل الهجرة ولا يهمنا ههنا اعطاء حبرون لتميم الداري قبل الهجرة ولا كتاب أمان لسراقة بن مالك المولجي أثناء سفر الهجرة . ويظهر[٢] أنه كان قد عاهد قبيلة جهينة في السنة الأولى للهجرة ولكن لم يصل إلينا نصه . أما معاهدة بني ضمرة ، فقد عقدت في صفر سنة ٢ فيما رواه السهيلي[٣] ، ونصها : « هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة » الخ . ومثلها تسلسلت ودامت باقي حياته ﷺ . ومن المعروف كتاب الموادعة[٤] زمن الخندق (سنة ٥) مع بني فزارة وغطفان ، والتحاجج والخلاف على كتابة بعض الكلمات والشرائط في هدنة الحديبية[٥] وكيف أمر النبي عليه السلام الكاتب ، وهو علي بن أبي طالب ، أن يمحو بعض ما كتب . وذكر المؤرخون[٦] في غزوة تبوك أن اكيدر الحيري ،

(١) باب كتابة الامام الناس .
(٢) سرية حمزة إلى سيف البحر عندابن هشام وغيره : « فحجز بينهم مجدي بن عمر الجهني وكان موادعا للفريقين » .
(٣) الوثائق السياسية ، رقم ١٥٩ .
(٤) الوثائق السياسية رقم ٨ .
(٥) انظر المراجع ، الوثائق السياسية رقم ١١ .
(٦) الوثائق السياسية ، رقم ١٩٠ .

صاحب دومة الجندل ، تعاهد مع المسلمين وكان النبي عليه السلام ، لما كتب عهده «ختمه بظفره»[١] . وكان من تقاليد أهل الحيرة ، وأكيدر منهم ، أن يمضوا معاهداتهم بظفرهم - لا بإبهامهم - فكانوا يختمون بظفرهم فيظهر خط مثل شكل هلال صغير . ونجد هذه العادة هناك من قديم الزمان فبقي أثرها وذكرها في معاهداتهم التي كتبت زمن الجاهلية ، على لبنات الطين وعثرت عليها في الأزمنة الحديثة[٢] .

(د) وكذلك كتبه التبليغية الى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم لا يعقل الا أن تكون محررة مكتوبة . وقد بقي بعضها الى هذا الزمان مثل كتابه الى المقوقس والنجاشي والمنذر بن ساوى (بحثت فيها في مقالات خاصة[٣]) . وذكر ابن عساكر في تأريخ دمشق[٤] أن أبا العباس عبد الله بن محمد كان قد اشترى معاهدة أيلة من أهلها بثلاث مائة دينار كأثر مبارك من الآثار النبوية .

(ه) وكثيراً ما احتاج النبي عليه السلام أن يكاتب عماله في أنحاء جزيرة العرب ، يبلغهم أوامره . وكذلك كتبوا اليه وسألوه أشياء في معضلات الحوادث فأجابهم بالكتابة . وقد تواتر الذكر في كتب الحديث أن النبي عليه السلام كتب[٥] مسائل الزكاة الى عماله ، وتوفي قبل أن تنفذ اليهم ، فعمل بها الخلفاء بعده .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢ ، ص ١٢٠ . ونقله الكتاني (١٧٩/١) . أيضاً عن الاصابة في ترجمتي وهب بن اكيدر ، واكيدر بن عبد الملك .

(٢) Meissner, Babylonien u. Assyrien, I, 179; O. Krückmann, Neue Babylonische Recht - u. Verwaltungstexte, 37/28; Ch. Edwards, The Hammurabi Code, p. II.

(٣) بالهندية في تأليفي « رسول أكرم كى سياسى زندكى » ، الباب « مكتوبات نبوى كى دو اصول » والباب « مكتوب نبوى نبام نجاشى » .

(٤) الطبعة الجديدة ٤٢٢/١٢ (تحقيق المنجد) .

(٥) سنن الدارقطني وابي داود والطبراني والدارمي وكنز العمال وغير ذلك .

والغرض من هذه الأمثلة أنه لا بد أن يكون قد كتب مثل هذه الأحاديث (و الوثائق الرسمية) في حياته ﷺ فان المطلوب منه لا يحصل الا بالكتابة . وقد جمعت ما وجدته في الكتب ، في تأليفي (الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة) وفيه أكثر من مائتين وخمسين للعهد النبوي خاصة . وقد أضفت اليها أربعين أخرى تقريباً للنشرة الثانية التي تحت الطبع . وهناك أمثلة أخرى من كتابة الحديث .

الكتابة الاتفاقية :

روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ خطب خطبة في مكة عام الفتح في حقوق الانسان : « فجاء رجل من أهل اليمن ـ وهو ابو شاه ـ فقال : اكتب لي يا رسول الله . فقال : اكتبوا لأبي فلان ... قال : كتب له هذه الخطبة » . (باب كتابة العلم) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وروي عن عتبان بن مالك الأنصاري أنه سمع يوماً كلاماً للنبي عليه السلام فأعجبه . فكتبه ليحفظه [١] .

نعم هذه حوادث اتفاقية وليس بجميع ما روي مثلها في التأريخ للعهد النبوي .

الكتابة بالجد والاهتمام :

(أ) روى الترمذي [٢] أن صحابياً من الأنصار حضر الى النبي عليه السلام وشكا سوء حفظه ، وتأسف وتحير كيف يعمل في المواعظ والحكم التي يسمعها كل يوم منه . فقال له : « استعن بيمينك » ، أي اكتب . فلا بد أن يكون قد كتب بعد ذلك . ولكن لا نعرف تفاصيل أخرى لهذا .

(١) نقله الاستاذ محمد زبير الصديقي ، كأنه عن الاصابة .
(٢) في كتاب العلم كما ذكره زبير الصديقي .

(ب) روي [١] مثله عن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي . فلما أمره النبي ﷺ أن يكتب ما يشاء ، تعجب وقال : «أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال : نعم . قلت : في الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً . وفي البخاري [٢] عن وهب بن منبه عن أخيه ـ وهو همام، صاحبنا ـ قال : «سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر عن همام عن أبي هريرة» . وكان عبد الله بن عمرو سمى مجموعته هذه «الصحيفة الصادقة» . ويقال إن فيها ألفاً من الأحاديث [٣] . وبقيت في عائلته فكان حفيده عمرو بن شعيب يحدث على أساسها ويروي أحاديثها [٤] . ورحم الله ابن حنبل فانا نجد هذه الصحيفة محفوظة في ضمن مسنده الجليل ، فصانها من إتلاف الحدثان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(ج) وكان أبو رافع ، مولى رسول الله وخادمه ، استأذنه أن يكتب أحاديثه فأذن له [٥] .

(د) وأهم من هذا كله أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه . وكان أبواه قد أمراه حين الهجرة ، أن يخدم النبي ﷺ في بيته فبقي لم يفارقه ليلاً ولا نهاراً الى أن توفاه الله بعد عشر سنوات ؛ وعاش أنس بعده طويلاً . وكان رأى وسمع ما لا يتيسر لغيره . وروى الدارمي أن أنساً كان دائماً يعظ بنيه : «يا بَنَيَّ قيدوا هذا العلم» . وروى الدارمي أيضاً : «رأيت أبان يكتب عند أنس» .

(١) ابن سعد ، ابن حنبل ، ترمذي وآخرون .
(٢) باب كتابة العلم .
(٣) زبير الصديقي عن اسد الغابة .
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/٤٨ ـ ٥٥ ، رقم ٨٠ .
(٥) زبير الصديقي عن تهذيب التهذيب ٣/٤٤٠ ابو رافع او رافع .

كيف لا وقد عُني هو بنفسه ان يكتب الحديث أكثر من غيره . فقد روى جماعة مثل الحاكم في المستدرك وغيره ، عن سعيد بن هلال :

« قال : اذا أكثرنا على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فأخرج الينا محالاً عنده ، فقال : هذه سمعتها من النبي ﷺ فكتبتها وعرضتها عليه » .

فكان لا يكتفي أن يكتب ما سمع أو رأى ، بل كان أيضاً يعرضه على صاحبه ويصحح اذا مست الحاجة .

فهذه من الحوادث التي نقلت عن الصحابة وهي تدل على أنهم كانوا يكتبون لأنفسهم الحديث النبوي في حياة نبيهم .

تأليف كتاب على يد صحابي :

من المعلوم أن عمرو بن حزم رضي الله عنه أرسله النبي عليه السلام عاملاً الى اليمن وكتب له وثيقة عهد فيها عهده وأمره فيها أمره . فحفظ عمرو بن حزم هذه الوثيقة فلم يتلفها ثم جمع واحداً وعشرين كتاباً آخر كتبها النبي ﷺ ليهود بني عاديا وبني عريض ، لتميم الداري ، لجهينة وجذام وطيء وثقيف وغيرهم . فضمها في تأليف فكان أول مجموعة للوثائق السياسية الاسلامية للعهد النبوي . وقد رواها عنه ابو جعفر الديبلي (الباكستاني) من محدثي القرن الثالث للهجرة . ونقله ابن طولون ذيلاً لتأليفه « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » (مخطوطة من يد المؤلف في خزانة المجمع العلمي بدمشق ، وقد طبع بعدُ) .

تدوين الحديث في عهد الصحابة :

وفي المصادر روايات كثيرة عن الصحابة تدل على أنهم كتبوا الأحاديث بأيديهم أو أملوها على تلامذتهم . ولو أن هذا حدث بعد وفاة النبي فإن شاهدي الوقائع أنفسهم لا يحول جيل بينهم وبين تدوين ما وعوا وما حفظوا .

(أ) فروى الامام مسلم [١] في صحيحه أن جابراً رضي الله عنه ألف كتاباً في الحج ـ لعله اشتمل على ذكر حجة الوداع وأحاديث أخرى وردت في مسائل الحج ـ وكانت له حلقة درس في المسجد النبوي ، فكتب وهب بن منبه ، صاحب التصانيف التأريخية ، أحاديثه من املائه [٢] . وروى البخاري [٣] عن قتادة ، التابعي الشهير أنه قال : « لأنا بصحيفة جابر أحفظ مني من سورة البقرة » . وكذلك يروى عن تلميذ آخر له ، وهو سلمان بن قيس اليشكري ، أنه كتب ما روى جابر من الأحاديث [٤] . وقد درس على جابر آخرون وكتبوا عنه صحيفته ورووا عنه [٥] .

(ب) كانت أم المؤمنين عائشة تقرأ ولا تكتب . وروي أن ابن اختها (عروة بن الزبير) صنّف ما قد حوى روايات عائشة وغيرها وقد ضاع كتابه زمن فتنة الحرة فكان يقول فيما بعد : « لوددت أن كنت فديتها بأهلي ومالي » [٦] . ولعائشة الصديقة تلامذة آخرون . منهم عمرة بنت عبد الرحمن ، كانت قد ربتها من طفولتها نحن لا نعرف هل كتبت عمرة شيئاً بيدها أم لا ، ولكن كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى عامله في المدينة ابي بكر بن محمد بن عمر بن حزم ـ وكان ابن اخت عمرة ـ « أن يكتب له من العلم ما عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد » [٧] . وكان القاسم هذا ، ابن أخي عائشة الصديقة ، وكان يتيماً فحضنته وربته وكان من كبار العلماء . « وعن أبي عيينة : كان أعلم الناس بحديث عائشة : عروة وعمرة والقاسم » [٨] .

---

(١) نقله الاستاذ مناظر أحسن كيلاني « تدوين حديث » ١٠١/١ .
(٢) تهذيب التهذيب ، ترجمة وهب .
(٣) التاريخ الكبير للبخاري ١٨٢/٤ .
(٤) تهذيب التهذيب ٢١٥/٤ ، رقم ٣٦٩ .
(٥) المصدر السابق ، وأيضا مناظر أحسن ١٠١/١ .
(٦) تهذيب التهذيب ١٨٣/٧ ، رقم ٣٠١ .
(٧) نقله مناظر أحسن عن ابن حجر والبخاري .
(٨) تهذيب التهذيب ١٨٢/٧ .

(ج) ويروى أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه جمع أحاديث النبي عليه السلام في كتاب وقد بلغ عددها خمسمائة حديث . ثم أتلفه خشية أن يكون كتب شيئاً لم يكن حفظه تاماً[١] .

(د) سأل ابو جحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : « قلت لعليّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا إلا كتاب الله أو فَهْمٌ أُعطيه رجل مسلم وما في هذه الصحيفة . قال ، قلت : فما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر »[٢] . يريد بالعقل ، المعاقل والديات . ولعله أراد دستور المدينة الذي كتبه النبي عليه السلام في السنة الأولى للهجرة[٣] ، وأكثره يتعلق بالمعاقل . والله أعلم .

(ه) أما عبد الله بن ابي أوفى رضي الله عنه فكان أيضاً يكتب الأحاديث . ويظهر أنه كان يدرّس بالمكاتبة كما نرى في عدة أبواب من صحيح البخاري : فقد روي عن موسى بن عقبة ، صاحب المغازي الشهيرة ، « عن سالم ابي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، أن عبد الله بن ابي أوفى كتب فقرأته ـ وفي رواية : كتب اليه عبد الله بن ابي أوفى حين خرج الى الحرورية فقرأته فاذا فيه ـ أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس . ثم قام في الناس فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف - ثم قال : اللهم مُنزل الكتاب ، ومُجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »[٤] .

(و) وكان سَمُرة بن جندب رضي الله عنه جمع أحاديث فورثه ابنه

---

(١) نقله زبير الصديقي عن طبقات الحفاظ ، ٢/ ٥ .
(٢) صحيح البخاري باب كتابة العلم ، وباب فكاك الاسير .
(٣) الوثائق السياسية رقم ١ .
(٤) صحيح البخاري باب لا تتمنوا لقاء العدو ؛ وباب اذا لم يقاتل أول النهار ، وباب الصبر عند القتال .

سليمان بن سمرة . وفي لفظ ابن حجر : « روى عن أبيه نسخة كبيرة » [١] . «وقال ابن سيرين : في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير » [٢] .

(ز) أما سعد بن عبادة الأنصاري ، فكان « كاملاً » من كتاب أهل الجاهلية [٣] . وكان عنده صحيفة جمع فيها الأحاديث النبوية . وكان ابنه يروي منها [٤] .

(ح) لا ندري اذا كان ابن عمر رضي الله عنهما كتب الأحاديث بنفسه ولكن نجد رواية سليمان بن موسى في طبقات ابن سعد « أنه رأى نافعاً مولى ابن عمر يملي عليه ويكتب بين يديه » . إن نافعاً كان من كبار العلماء وأرشد تلامذة ابن عمر ، الذى صحبه ثلاثين سنة . ولا بد أن يكون قد حوى جميع علم استاذه الجليل فقد كان ابن عمر يقول : « لقد منَّ الله علينا بنافع » [٥] .

(ط) أما ابن عباس رضي الله عنه ، فهو اشهر من ان نحتاج الى تفصيل حياته العلمية . فقد تواتر عنه أنه لما توفي ، ترك حمل بعير من تصانيفه . وروى الترمذي [٦] عنه عن مولاه وتلميذه عكرمة « أن نفراً قدموا على ابن عباس من أهل الطائف بكتب من كتبه فجعل يقرأ عليهم » . وروى الدارمي وابن سعد وغيرهما عن تلميذ آخر له ـ وهو سعيد بن جبير ـ أنه كان يكتب ما يملي عليه ابن عباس رضي الله عنهما من الأحاديث . فاذا نفد القرطاس احياناً أثناء كتابته ، كتب على لباسه ونعله حتى على كفه ، ثم نقله في الصحف اذا رجع الى بيته . فلما توفي سيدنا ابن عباس ، ورث كتبه ابنه علي ، فبقي علمه بعده وتسلسل .

(١) تهذيب التهذيب ١٩٨/٤ .
(٢) تهذيب التهذيب ٢٣٦/٤ ، رقم ٤٠١ .
(٣) تهذيب التهذيب ٤٧٥/٣ ، رقم ٨٨٣ .
(٤) الترمذي في كتاب الاحكام ، ذكره مناظر أحسن .
(٥) تهذيب التهذيب ٤١٣/١٠ ، رقم ٧٤٢ .
(٦) في كتاب العلل ، ذكره مناظر أحسن .

صحابة آخرون :

(ي) كتب الاستاذ عبد الصمد صارم في تأليفه بالهندية « عرض الأنوار المعروف بتأريخ القرآن » (طبع دهلي ١٣٥٩ هـ) بعض ما يتعلق ببحثنا[١] . فنقل عن الجامع الصغير أن الأحاديث التي كان جمعها عبد الله بن مسعود كانت عند ابنه ؛ ورأى ذكر كتاب سعد بن عبادة في مسند ابن حنبل ؛ ونقل عن أسد الغابة أن سعد بن الربيع بن عمرو بن ابي زهير الأنصاري جمع بعض الأحاديث ؛ وعن تهذيب التهذيب لعبد الله بن ربيعة بن مرثد ؛ وعن البيهقي أن النبي ﷺ كتب لسيدنا ابي بكر الصديق احكام الحج (كأنه في السنة التاسعة للهجرة) ؛ الى غير ذلك .

أبو هريرة :

(ك) أما ابو هريرة الدَّوسي اليمني رضي الله عنه ، « فقال البخاري : روى عنه نحو ثمانمائة رجل او اكثر من اهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم »[٢] . ويقال إنه سمي أبا هريرة لجودة حفظه كما أن الهرة لا تنسى ما عرفت من الأمكنة . وروى البخاري في صحيحه[٣] : « عن ابي هريرة ، قال : إن الناس يقولون : أكثر ابو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ، ما حدثت حديثاً . ثم يتلو : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) إلى قوله (الرحيم) . إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ؛ وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ؛ وإن ابا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه يحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون » .

---

(١) راجع ص ١٧٣ وما بعده . مع الاسف لم اجد فرصة كي أرجع إلى الاصول التي ذكرها واحقق رقم الجلد والصفحات .

(٢) تهذيب التهذيب ١٢/٢٦٥ ، رقم ١٢١٦ .

(٣) باب حفظ العلم .

فما روي من جودة حفظه أن مروان بن الحكم امتحنه مرة فطلبه فجاء . وكان مروان امر كاتباً له أن يجلس وراء الستر . فطفق مروان يسأل ابا هريرة ، فيحدث عما علم . ويقول الكاتب : « فجعل يسأل وانا اكتب حديثاً كثيراً . ولم يشعر ابو هريرة رضي الله عنه ما وقع وراء الستر ؟ فراح . ثم طلبه مروان مرة اخرى . ويقول الكاتب : « فتركه سنة ثم ارسل في طلبه وأجلسني وراء الستر فجعل يسأل وأنا انظر في الكتاب . فما زاد ولا نقص » [١] . فيدل هذا لا على جودة حفظ ابي هريرة ، بل على أن عدداً من رواياته كانت قد كتبت وقوبلت عليها بأمر مروان .

وروي أن ابا هريرة ارى ابن وهب مرة كتبه [٢] . وروى الدارمي تدويناً آخر لروايات ابي هريرة فقال : « عن بشير بن نهيك ، قال : كنت اكتب ما اسمع من ابي هريرة . فلما اردت ان أفارقه ، اتيته بكتابه ، فقرأته عليه وقلت له : هذا ما سمعت منك . قال : نعم » .

وروى ابن عبد البر ما يكاد يتعلق بأواخر عمر ابي هريرة ، فروى عن ابن لعمرو بن أمية الضمري ، قال :

« تحدثت عند ابي هريرة بحديث . فأنكر . فقلت : إني قد سمعته منك . فقال : إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي . فأخذ بيدي الى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ فوجد ذلك الحديث . فقال : قد أخبرتك : إن كنتُ حدثتك به فهو مكتوب عندي » . (جامع بيان العلم ٧٤/١) .

ولأبي هريرة رضي الله عنه تلامذة آخرون . منهم همّام بن منبّه صاحب الصحيفة التي نحن بصددها . وهي من أقدم ما دوّن في الحديث ، وحفظته لنا خزائن الكتب .

(١) كتاب الكنى للبخاري ص ٣٣ ، ذكره مناظر احسن .
(٢) فتح الباري ١٨٤/١ ، ذكره زبير الصديقي .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

همّام بن منبّه :

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب [١] ما نصه : همّام بن مُنبّه بن كامل بن شيخ اليماني ابو عقبة الصنعاني الأبناوي ـ والأبناء هم أهل فارس توطنوا قبل الاسلام في بلاد اليمن بعدما فتحها كسرى ـ روى عن ابي هريرة ، ومعاوية ، وابن عباس ، وابن عمر ، والزبير ، وعنه اخوه وهب بن منبه ، وابن اخيه عقيل ابن معقل بن منبه ، وعلي بن الحسن بن آتش ، ومعمر بن راشد . قال اسحاق ابن منصور عن ابن معين : ثقة . وذكره ابن حبّان في الثقات . وقال الميموني عن احمد : كان يغزو ، وكان يشتري الكتب لأخيه وهب . فجالس ابا هريرة فسمع منه احاديث وهي نحو من اربعين ومائة حديث بإسناد واحد . وأدركه معمر ، وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه ، فقرأ عليه همام ، حتى اذا ملّ ، أخذ معمر فقرأ الباقي . وكان عبد الرزاق لا يعرف ما قُرئ عليه مما قرأ هو . قال ابن سعد : مات احدى وثلاثين ـ (أي بعد المائة) ـ وقال البخاري : قال علي : سألت رجلاً قدلقي همام بن منبه : متى مات همام ؟ فقال : مات سنة اثنتين قال ، وقال ابن عيينة : كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين . قلت : وقال ابن سعد [٢] ، والخليفة وابن حبان : مات سنة إحدى او اثنتين وثلاثين . وقال العجلي : يمانيّ ، تابعي ، ثقة » . انتهى ما قال ابن حجر العسقلاني .

وقال صاحب كشف الظنون : « الصحيفة الصحيحة للشيخ همام بن منبه الصنعاني المتوفى سنة ١٣١ . وهي التي كتبها عن ابي هريرة » .

فكان همام قد جالس ابا هريرة مدة ، وسمع منه أحاديث وكتبها في مجموعة سماها « الصحيفة الصحيحة » ، على ما روى في كشف الظنون ، كأن هذا على

(١) ٦٧/١١ ، رقم ١٠٦ (راجع أيضا ٥٧٤/١) .
(٢) راجع طبقات ابن سعد ٢٩٦/٥ .

مثال «الصحيفة الصادقة» لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. فصحيفة همام، رواها تلميذه معمر عنه. ثم عبد الرزاق عن معمر. ثم هلم جرا. وعلى هذا تكون هذه الصحيفة قد دونت في اواسط القرن الأول للهجرة، لأن اباهريرة توفي سنة ٥٨ هـ.

وقد نقلها ابن حنبل في مسنده (ج ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٩) بتمامها. ونقل البخاري عدداً كثيراً من احاديثها في صحيحه، في أبواب شتى[1]. سوى ما تواتر رواية هذه الصحيفة على حدة نسلاً بعد نسل. وقد عثرنا على مخطوطتين منها، تحتويان على إسنادين مختلفين. سنفصل ذكرهما فيما سيأتي:

لا يمكن مقابلة الصحيفة بما نقل منها البخاري في صحيحه فانه فرّق أحاديثها في أبواب متفرقة. أما ابن حنبل فنقلها برمتها كما هي. فاذا قابلنا الباب المتعلق من مسند ابن حنبل مع المخطوطتين لدينا، وجدنا الفروق الآتية:

١) يتفق المسند مع المخطوطتين ولا يختلف في ترتيب الأحاديث إلا مرتين أو ثلاث. وهذا بلا زيادة كلمات ولا نقصانها. (راجع الصحيفة في الأحاديث رقم ١٣، ٩٣، ١٢٦، ١٣٨).

٢) نجد في مسند ابن حنبل حديثاً واحداً لا نجده في المخطوطتين لدينا (راجع رقم ١٤/ب). ومن المعروف أن في النسخة المطبوعة من المسند أغلاط طبع كثيرة. ولا يذكر ابن حنبل حديثاً (رقمه ٥) نجده في كلتا المخطوطتين.

٣) تكرر كلمة «وسمي الحرب خدعة» في حديثين في مخطوطتي الصحيفة (رقم ٢٩، ٤٠) أما ابن حنبل فلا يذكره إلا مرة واحدة (٤٠).

٤) تغير بين المصدرين بعض عوارض الرواية مثل «عز وجل» بدل «تعالى» بعد ذكر اسم الله؛ أو «النبي» و«أبو القاسم» بدل «رسول الله»؛ أو أشياء

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(1) جلد اول، ص ٣٤، ٣٩، ٥٦، ٦٤، ٩١، جلد رابع ٥٦، ٦٣، ٨٦ إلى غير ذلك (من طبع مصر ١٣١٣ هـ).

ما يوجد مثلها عادة بين مخطوطتين من كتاب واحد . وقد أثبتناها في الحواشي . وليس فيها ما يبدّل المفهوم أو يغير المراد .

فاذا لم يتغير تأليف همام بن منبه المتوفى سنة ١٣١ الى زماننا هذا (سنة ١٣٧١) بعد كثرة ما تناولته الأيدي ونقله الناقلون والرواة والمؤلفون ، فلا مجال لانكار صحة ما مضى قبل همام من لدن النبي ﷺ الى أن رواه ابو هريرة . ولنذكر أن الأحاديث المذكورة في صحيفة همام ، قد رواها غيره ايضاً كما وجدناها في مسند ابن حنبل والبخاري وسائر كتب الحديث المتداولة ، بعضها عن ابي هريرة وبعضها عن غيره من الصحابة .

وصف المخطوطتين :

إن مخطوطة برلين ، رقمها (1384 We 1797) وكانت في مكتبة الدولة Staatsbibliothek في عاصمة المانيا . (وهذه المخطوطات محفوظة في هذا الزمان في مدينة تيوبنغن Tübingen) . فهذه المخطوطة في مجموعة رسائل ، تبتدئ صحيفة همام بن منبه فيها من الورقة (٥٤) وتنتهي بالورقة (٦١) وتنقص في أثنائها ورقتان . حجمها ٥ر١٧ × ٥ر١٢ سنتمتراً . وفي كل صفحة (١٩) سطراً . ويبدأ كل حديث فيها بكلمة « وقال » بالمداد الأحمر . أنا كنت نقلتها بخطي ، وهذا ما أثبتُ في آخر نقلي : « نقله لفظاً لفظاً من الأصل المحفوظ في خزانة الحكومة البروسادية في برلين يوم عرفة ويوماً قبله سنة ١٣٢١ من الهجرة وقابله من الأصل المنقول عنه بحسب الاستطاعة ، محمد حميد الله » . وهذه النسخة من أوائل القرن الثاني عشر للهجرة .

فلما رجعنا الى بروكلمان ، أسفنا لما وجدنا فيها من الأغلاط الفاحشة . فلا يذكر بروكلمان هذه الصحيفة تحت اسم همام بن منبه . فلما أطلنا البحث ، عثرنا عليها بالمصادفة ، فانه ينسبها الى « عبد الوهاب بن محمد بن اسحاق بن منده المتوفى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠٨٢/٤٧٣» . ثم يقول : «من تأليفه صحيفة همام بن منده (كذا) المتوفى ١٥١/٧٤٨ (كذا) عن أبي هريرة المتوفى ٦٧٨/٥٨» . وليس هذا في الطبعة الأولى ، بل في ضميمة الكتاب وفي ضميمة الضميمة للجلد الأول . فقال «همام بن منده» ، ولم يرد إلا «همام بن منبه» . وكذا سها في تأريخ وفاته (الصحيح أنه ١٣١ ، لا ١٥١) ، كما سها سهواً فاحشاً في عزوه الى عبد الوهاب ابن منده ، وليس هناك إلا راوٍ في عصر من العصور .

مخطوطة دمشق :

أما مخطوطة دمشق فهي تفوق اختها تفوّق نور الشمس على ضوء القمر المستعار . وهي محفوظة في خزانة الكتب الظاهرية . ودلني عليها الأستاذ محمد زبير الصديقي (من جامعة كلكته) . وأما صورتها الشمسية فقد حصلت عليها من الأستاذ صلاح الدين المنجد . وكلاهما يستحقان شكري وشكر من سيستفيد من قراءة هذه الصحيفة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهي ايضاً ضمن مجموعة رسائل . تمتاز بأنها كاملة وأقدم المخطوطتين كتابة . فهي من القرن السادس من الهجرة . وكذلك هي أصل النسخة التي استعملت للدرس والسماع وثبت الاجازات مراراً عديدة . وقد درس فيها ابن عساكر ، صاحب تأريخ دمشق فيمن درس . وخطها جميل ، غير أن الناسخ اهمل نقط الحروف في اكثر الأحيان . وسطورها في كل صفحة إما ٢١ او ٢٢ او ٢٣ . وحجم صورتها الشمسية كحجم النسخة الألمانية . وهذه النسخة المكتوبة بدمشق ، من زمن حروب الصليبيين . ونرى في سماعاتها ما كانت من عادات الدرس الاسلامي وآدابه عند المحدثين في تلك الأزمنة من الحروب والفتن . ولسنا بصددها الآن .

وفي كلتا المخطوطتين كتب الناسخ بعض اختلافات الرواية على الهامش فقال إما «أؤخر» أو «أدخر» ؛ وكذلك «تركتكم» ، «تركتم» ، «يحبونك» :

يجيبونك » ، « فزادوا : فزادوه » ، « بطعامكم : بطعامه » ، « حين : حينئذ » .
ونرى بعض هذه الاختلافات ، التي لا تغير مفهوم الحديث البتة ، في مسند ابن حنبل أيضاً . ولعلها من زمن معمر ، وهو لم يسمعها تماماً من همام ، كما نقلنا فيما مضى عن ابن حجر ، بل قرأها هو عليه حين كان همام قد ملّ وتعب . والدرس الشفاهي كان أعظم وسيلة لصحة ما كتب .

فالحديث النبوي مبني على عمودين : الكتابة والسماع ، كل واحد منهما يعاضد الآخر . فلو قابل احد هذا الحزم والاحتياط في حفظ الحديث المحمدي وصحته مع ما وقع لحديث أنبياء آخرين قبل الاسلام ، وكذلك مع ما هو حال « التأريخ » في عصرنا الحاضر من أكاذيب الصحف وتدليسات الوثائق الرسمية ، وفكر تفكيراً سليماً ، لوضح له فضل الحديث ، وما فاق به المحدثون من لدن عصر الصحابة الى العصور المتأخرة التي أبقى الدهر من آثارها الأصلية . والفرق بين حديث المسلمين وحديث غيرهم مثل ما بين السماء والأرض ، وشتان ما بينهما ، لا يشوبه أكاذيب الأعداء ولا جهل الأصدقاء .

وها كم فيما يلي « الصحيفة الصحيحة » لهمام بن منبه رحمه الله تعالى . وقد أضفنا اليها الأرقام على الأحاديث لتسهيل المراجعة :

(يتبع) محمد حميد الله

شيخ الإسلام ابن تيمية

— ٤ —

علاوة ثالثة

توجيه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد

يظن بعض الناس أن دعاة الاصلاح والتجديد ، لأمر الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة ، إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ما عداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو اليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم ، إن تعجب فعجب هذا الزعم الباطل ! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقفو أثرهم ، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران ، ونحن نتلو أخبارهم ، ونقفو آثارهم ، وان لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الأمم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة .

انا نحاول ان نكون أمةً ذات مدنية عربية اسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية للإسلام . ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ما جعل أشد الناس ايمانًا بها من قبل ، أشدهم بغضًا لها ، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية ، ويحاول إرجاع الناس اليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديمًا وحديثًا ، وقد ألف كتبًا كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية ، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها ، وقد أثرنا بعضها من قبل . وله رحمه الله في باب التوحيد الخالص ، المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد ، كتب ورسائل ، بعضها طبع وبعضها لمّا يطبع ، ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة : (١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣ — ٧٢٤) وترجمته في الشذرات (ج ٦ ص ٦٤) وهو ردّ على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين ، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه . (٢) كتاب الرد على الاخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٦٦٤ — ٧٣٢) وترجمته في الشذرات أيضًا (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية ، الزيارة الشرعية » وهما مطبوعان معًا بمصر سنة ١٣٤٦ . (٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وهو مطبوع بمصر أيضًا سنة ١٣٢٧ هـ .

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة ؛ وبيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان ، وما سمعه شيخ الاسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم . وقد حقق فيه أن لفظ (الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب ، انما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثر ما يقال : يا غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده في الشدائد اذا دعوه ، ومريحهم ومخلصهم ، فلا يجوز للإنسان الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله . (قال) : ولو كانت الاستغاثة

بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالإمامة في الصلاة، والإمارة في الغزو، وإرسال البعوث، وعقد الألوية، والشعائر في الحرب، وإقامة الحدود، وإيصال الحقوق، وقسم المواريث والغنائم، والفيء والصدقات، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال، أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال والأعمال، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل، والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا ... فهذه الأمور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء، كما انتهى حق الله الذي أمره به [١].

وأقول تأييداً لما ذكره شيخ الإسلام: ان الصحابة الكرام، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، في أمر الخلافة، وفي جمع القرآن، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة، وفي إرسال جيش أسامة، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد، ولا استفتوه في شيء منها، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة، فيجب رد ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل، وما عرف من سنن الصدر الأول للإسلام. ولو كان ترك وسائل النصر والظفر، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً، وأنعمها بالاً، وأوفرها عزة وثروة وقوة، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً، «قل ادعوا الذين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا، أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخشون عذابه، ان عذاب ربك كان محذورا» [٢].

---

(١) ملخصه من ص ٨٣ و ٩١ و ١١٠ منه.

(٢) الاسراء: (٥٦ و ٥٧).

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به (ﷺ) وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه وبحقه ، كالسبكي في شفاء السقام ، والقسطلاني في المواهب ، والسمهودي في خلاصة الوفا ، وابن حجر المكي في الجوهر المنظم وغيرهم . والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم ، وسيأتي بحث ذلك . أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم — أي زوال الشدة ، وتفريج الهم والكرب ، وقضاء سائر الحوائج ، فهذه استغاثة شركية ، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال ، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر ، والبر والبحر ، والعسر واليسر ، والفرج والشدة ، ونحن نجل أهل العلم والعقل والإيمان ، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان .

وفي الكتاب الثاني لشيخ الإسلام (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ماملخصه : لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته (ﷺ) فهذا فرض لا يتم الايمان إلا به . (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة . (والثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال ابو حنيفة وأصحابه انه لايجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق[1] اه .

أقول إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الأحياء بين أظهر الناس ، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء ، فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع ، معروفة في كتب الحديث والفقه ، ومنها أن يخرج المتوسل به الى المصلى

(١) ص ١٢ و ٥٣ و ٥٥ و ٥٧ و ١٧٦ منه

ويخرج الناس معه ، فيستسقي ويدعو مستقبلاً القبلة ، ويحوّل رداءه ويصلي ركعتين ، ويخطب خطبتين ، أو نحوها من الهيئات الثابتة ، كما يعلم ذلك من سَبْر الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء ، والمتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء .

ثم هنا مسألة مهمة وهي أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصلاح الصالحين ، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة بينها وبين إجابة سؤله ، فاذا قال الداعي : أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ واذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى : طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه ، ولا هو محل نزاع ، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه ، وتستحق الجزاء عليه ، وانما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً : اللهم أزل ضعفنا ، وأمّن خوفنا ، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لإعلاء كلمتك ، ففتحت لهم فتحاً مبيناً ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم ، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم ، وسعة سلطانهم ، واستبحار عمرانهم ، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً ، ونهباً مقسماً ! لا لا ، وانما ننهض ونجدد اذا اهتدينا بهديهم وكان لنا مثل عملهم .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : « وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في

الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع » . وقال أيضاً : وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي . وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده بدفع قدَر العقوبة الأخروية بقدَر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً اه .

قلت : ويشهد له قوله تعالى : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » فهو توسل الى الله تعالى بالإيمان والاتباع . ومن أفضل أنواع التوسل ما جعله الله تعالى دعاء للمؤمنين ، ورتب عليه غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار ، فقال عز من قائل : « ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار » وقال جلت حكمته : « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا الى التوسل اليه تعالى بما شرعه من الإخلاص في الدعاء له وحده ، والإيمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه ؛ فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب ، والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ، وأين هذا التعليم الإلهي ، والتوسل الشرعي ، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم ، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان « قل أأنتم أعلم أم الله » ؟

وأما الكتاب الثالث — وهو الرد على الإخنائي — المسمى بقاضي القضاة ، فسببه أن الإمام ابن تيمية قد أرسل اليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة ، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر الى غير المساجد الثلاثة كالسفر الى (مجرَّد) زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب ،

«وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة ، فأظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الإجماع ، وأن السفر لمجرد قبور الانبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع ، وهو السفر الى مسجد نبينا محمد (ﷺ) المتضمن لما شرعه الله من السفر الى مسجده والصلاة فيه ، والسلام عليه ومحبته وتعظيمه ، وغير ذلك من حقوقه (ﷺ) في مسجده المؤسس على التقوى» اهـ.

أرسل اليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم ، وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الأنبياء ولا غيرهم ، ولا كان السؤال عن هذا ، وانما فيه الجواب عن السفر الى القبور ، وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة ، وفي جميع مناسكه بذكر استحباب الزيارة . قال ابن تيمية : وأما من كان قصده السفر الى مسجده وقبره معاً فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالإجماع» ... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد الا زيارة القبور ، لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر الى مكة (أي المسجد الحرام) والى مسجد النبي (ﷺ) والمسجد الأقصى .

أقول : إن هذا الموضوع بأقسامه الثلاثة : الزيارة ، وشد الرحال ، والتوسل ، قد شغل الناس قروناً طويلة ، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات ، وكنت قدمت اقتراحاً الى مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦م) قربت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث ، ووافق عليه الأعضاء المؤتمرون جميعاً ، وخلاصته :

١ — ان الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال ، ليس فيها مطعن ولا مقال ، وقد كان النبي يزور سكان البقيع ، وشهداء أحد ، ثم قلت : إن هذا العصر عصر تآمر ملل ، واتفاق دول ، تخالف مصلحتنا معشر العرب

والمسلمين ، وإن كثيراً من العوام والغلاة ، كما أعوزهم كشف البلاء ، أو تحقيق الرجاء ، تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة ، والأخذ بوسائل الدفاع ، ولجؤوا الى قبور بعض الصالحين ، يستنجدون بهم للدفاع عنهم ، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين ، فدرءاً لهذه المفاسد الدينية والدنيوية ، نوضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضرّ ، يعدُّ عبادة لذلك الغير «فلا تدعوا مع الله أحداً» وفي الحديث (إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله) فيستفاد من ذلك أن ليس في الإسلام إلا الأخذ بالأسباب المشروعة في جميع المهات ؟ والاستعداد لجميع الطوارئ والحادثات بقدر الاستطاعة .

٢ — إن مسألة شد الرحال إلى المساجد الثلاثة مفروغ منها ، وإن السفر الى ماعداها من المساجد ، أو لمجرد زيارة القبور ، لم يعهد في الصدر الأول ، ولم يقع من الأئمة الهداة ، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشدّ الرحال اليها ، كأداء العبادة في مسجده ؟ أم هي مشروعة تبعاً لأداء العبادة في المسجد ؟ في المسألة قولان ، ويوفق بينها بأن الصلاة في مسجد النبي وزيارته متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، كمسألة الفقير والمسكين والإيمان والإسلام عند الفقهاء فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر ، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال إلى أداء العبادة في المسجد ، ومعها زيارته ﷺ .

٣ — إن من استقرأ النصوص ، وسبر غورها ، ظهر له منها أن التوسل اليه تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح هو المشروع ، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته فيهما واحدة كما قال ابن القيم ، وفي طليعة كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) تحقيق بديع لهذا البحث ، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك ، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً ، كانت المسألة خلافية ،

وكان فيها قولان لمثل الإمام أحمد بن حنبل ، وقد ورد : « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا » رواه احمد وابن ماجه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف كما قالوا ، ولكن معناه صحيح ، فحق السائلين عليه الإجابة ، وحق الماشين الى المساجد الإثابة ، « وقال ربكم : ادعوني استجب لكم » فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به ، وقد تفضل فجعله حقاً لهم عليه ، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية ، وليس ذلك من محل النزاع في شيء .

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الأنبياء والصالحين ، والاكتفاء بتشييد القبور ، وجعلها كالقصور والقلاع ، والصلاة عندها ، والطواف حولها ، ونذر النذور لسدنتها ، ويرحم الله حافظاً القائل :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص ، والعاملين للمدنية الصحيحة ، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية ، في الأقطار الشرقية والغربية ، تدعو الى الله على بصيرة ، وتصحح العقائد والعوائد ، وتزيل المهالك والمفاسد ، وتعيد عهد الأئمة ، وتجدد معالم الأمة .

وسنصل البحث بما حققه شيخ الإسلام : من وحدة الأديان ، وأخوة الرسل الكرام ، إن شاء الله .

(يتبع) محمد بهجة البيطار

التعريف والنقد

حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول

شكري فيصل : دكتور في الآداب

مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧١ — ١٩٥٢

يرى الدكتور شكري فيصل ان كل دراسة للمجتمع الإسلامي في نشأته ونموه يجب أن تقوم قبل كل شيء على دراسة الفتوحات ورصد معالمها الظاهرة والباطنة .

من هذه الزاوية نظر في حركة الفتح الإسلامي وعلى هدى منها عمل كتابه الذي عُني فيه بالفتوح من الوجه الآتي : من حيث أنها سبب في نشأة المجتمعات الجديدة وطريق للتعرف الى معالم هذه المجتمعات وسبيل بعد ذلك إلى دراسة اللغة والأدب دراسة لا تحيا جذورها على السطح الأعلى من الأرض ولكنها تنفذ ما استطاعت البعيد العميق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أجتزئ في هذه السطور بالدلالة على روح الكتاب أما خصائصه فلا يتيسر الوقوف عليها إلا بعد مطالعته .

لقد مشى بنا الدكتور شكري فيصل في الفتح الإسلامي مشياً وئيداً فجعل فتوح الشام والعراق ومصر قسماً وجعل ما وراء مصر قسماً وما وراء العراق قسماً فكان لنا بعد الانتهاء من كل فصل من هذه الفصول صورة واضحة لحركة الجيوش وتعاقبها وأمدادها وما تمكنت منه وما ارتدت عنه ولغلبتها واستقرارها في خاتمة الأمر .

ليس من الضروري بعد هذا كله أن نقف على فتح كل قطر على حدة لأن غايتنا التعريف بالكتاب لا التحليل ولا التركيب ، ولكن لا نجد لنا مندوحة

عن الإشادة بالنهج العلمي الذي نهجه المؤلف فيه ، انا نرى الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا وأعني بهذا الفكر الرياضي تسلسل المباحث وربط بعضها ببعض ربطاً منطقياً حتى لا يركب بعضها بعضاً واذا كان الفكر الرياضي مفقوداً في أكثر كتبنا فان كتاب الدكتور شكري فيصل ينعم به نعمة كبيرة وحسب صاحبه هذا الفضل .

لقد حاول أكثر المؤرخين في مؤلفاتهم أن يأخذوا بأيدينا في مسالك الجيوش فوقفنا على حركات الجيوش وسكناتها واطلعنا على عَددها وعُددها ورأينا بأعيننا هزمها وانهزامها وشهدنا أكثر من ذلك الروح الخفية التي تدفعها الى الفتح والتوسع في الآفاق والخلاصة رأينا المثل الأعلى الذي يمشي بها وقد دلنا على هذا المثل الأعلى عبد الله بن الزبير في خطبة من خطبه في فتح افريقية اذ قال : فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دويّ بالقرآن كدويّ النحل ، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم ، فهذا الدويّ بالقرآن هو الذي دفع المسلمين الى فتوحاتهم فكان لهم أملان : أمل في الدنيا وأمل في الآخرة .

هذا كله اهتدى اليه المؤرخون ولكن الشيء الذي لا نزال نجهل أكثره أو أقله انما هو حالة بلاد العدو النفسية في تلك الفتوح ، فنحن نعلم في هذا العصر ان للحالات النفسية أثراً كبيراً في الحروب ، في الهزم والانهزام فالعُدد وحدها لا تفسر لنا هذا الهزم وهذا الانهزام فلا بدّ من الوصول الى أعماق النفوس حتى نعلم حالاتها في مثل هذه الحروب فكيف كانت حالات بلاد العدو النفسية في فتوح المسلمين ، لا شك في أن جيوش المسلمين انتفعت بضعف هذه الحالات بقدر انتفاعها بقوة رجالها وشدة ايمانهم فالتاريخ لا يزال غامضاً في هذا المعنى فهو لم يفسر لنا الحالات النفسية في الجيوش المنهزمة وفي بلادها وهذا عنصر ذو شأن في عصرنا هذا في تحليلات الحروب .

واذا كان يجدر بنا الإشادة بكتاب الدكتور شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي فانا نشيد به لأنه لم يهمل في بعضه هذا العنصر العظيم .

المجتمعات الاسلامية في القرن الأول

شكري فيصل

مطابع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧١ — ١٩٥٢

خرج التأريخ على مختلف أشكاله عن أن يكون مجرّد حكايات وروايات وانما هو إحياء لصور ماضية ، صور حروب ، صور جماعات ، صور مجتمعات وما شابه ذلك ، واذا لم يشتمل التأريخ على مثل هذا الإحياء كان جامداً ، فاذا روى لنا الفتوحات فانا لا نكتفي برؤية جيش يزحف الى جيش أو جند يغلبون جنداً وانما نريد أن نرى العوامل النفسية في الغلبة والانكسار حتى نرى بأعيننا صوراً ناطقة بلحمها ودمها وروحها ، فالشيء الذي تشتد الحاجة الى معرفته في عصرنا هذا ، عصر التحليل والتركيب ، انما هو صورة المجتمعات الاسلامية بعد فتوحات الإسلام ، كيف كانت الطبقات في البلاد التي استولى عليها المسلمون ، كيف كانت لغاتهم ، كيف امتزج المسلمون بهذه الطبقات أو كيف امتزجت الطبقات بالمسلمين ، وما هو أثر التفاعل في هذا الامتزاج ، كيف خالطت لغة العرب اللغات الجديدة في البلاد التي غلب عليها العرب ، ما الذي استفادت من هذه اللغات أو ما الذي استفادت اللغات منها ، هذا ونظيره هو الذي يعنينا أمره في عصرنا هذا ، انا نريد أن نرى جماعات ناطقة نشهد حياتها ونسمع كلامها ، نريد أن ينفض المؤلف التأريخ من مدافنه حتى نعيش مع أهله في مجتمعاتهم ونسمع كلامهم .

هذا ما بذل مجهوده فيه الدكتور شكري فيصل في كتابه : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول .

في كتابه : حركة الفتح الإسلامي درس هذه الحركة حتى يصل الى معرفة نتائجها في المجتمعات الاسلامية وفي اللغة والأدب .

وفي كتاب : المجتمعات الاسلامية أحيا لنا هذه النتائج فبيّن كيف أدّت فتوحات المسلمين الى انشاء مجتمعات جديدة وما هي الأطوار الجديدة التي دخلت فيها لغة العرب وأدبهم بعد الفتح .

واذا شئنا أن نعرف شيئاً من مظاهر هذا الكتاب فانا نكتفي بأن نقول ان المتعارف ان مجتمعات الجاهلية كانت عبارة عن عصبيات متناحرة تقوم على خلاف القبائل وانقسامها وان هذه القبائل كانت وكأنما كل واحدة منها أمة مستقلة الا أن الدكتور شكري فيصل لم ينعب هذا المذهب فقد قرّر ان مجتمعات الجاهلية لم تكن على هذه الصورة من الجمود والتشتت ولم تكن القبائل تعيش في هذا التباعد وانما كانت هناك حركة تسوق القبائل وتقرّب بينها .

من الصعب أن نحيط في هذه الكلمة المختصرة بروح كتاب الدكتور فيصل من مجامع نواحيه ، من الصعب أن نحيط بآثار الفتوح الإسلامية في المجتمعات واللغة والأدب ، انا نعرف أن اللغة العربية بعد أن خرجت من بيئتها لم تكن ملك العرب وحدهم كما يقول « دوزي » في معجمه وانما أصبحت ملك الولايات التي استولى عليها العرب فامتزج العرب بأهل تلك الولايات فكان لهذا الامتزاج أثر في العرب أنفسهم وفي لغتهم فاقتبس العرب عن المغلوبين من أهل الشام وفارس والقبط والبربر والاسبانيين والترك طائفة عظيمة من المفردات ، انتقل العرب من البدو الى عالم كانت آفاقه جديدة فاتصلوا بمدن ورثت أشياء كثيرة من الحضارات القديمة كحضارة الرومانيين وحضارة الفرس فأثر هذا الانتقال في ثقافتهم فدرسوا فنون المغلوبين وعلومهم وأدّت هذه الدراسة الى انقلاب في أفكارهم وأخلاقهم ولغتهم ذاتها .

وضّح الدكتور فيصل في كتابه آثار هذا الانقلاب في مجتمعات المسلمين ولغتهم وأدبهم ففي كل عصر كان ناس يحرصون على مجتمعاتهم القديمة ولغتهم القديمة وناس يذهبون مذاهب جديدة ، ففي القرن الأول من الاسلام حاول

بعض الشعراء أن يحرصوا على الروح الجاهلية في شعرهم كما حاول بعد ذلك علماء اللغة أن يحرصوا على وحدة لغتهم الا ان الفتوحات أثرت في الأدب وفي اللغة وليس بقليل أن نشهد عواقب هذه الآثار فنرى كيف استفاض اللحن في كلام الناس .

لقد استطاع الدكتور أن يصور لنا في مؤلفه العظيم هذا العالم الجديد الذي تصارعت فيه بعد الفتوحات الإسلامية لغة العرب ولغات ثانية ومجتمع العرب ومجتمعات ثانية حتى كدنا نرى آثار هذا التنازع بأعيننا فكأننا عشنا بين ظهراني الإماء والعبيد والزنوج والأنباط الذين خالطوا العرب فتعلموا لغتهم وجهدوا بينها وبين عجميتهم ، ولكن لغة العرب بعد الفتوح غلبت على كل اللغات التي مرت بها فلم تستطع لغة واحدة منها أن تستأصل العربية .

أفلا يحق لنا بعد هذه الصور الناطقة التي ازدحمت في كتاب : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول أن نثني على صاحبه أجمل الثناء وأن نشيد بفضله ومجهوده .

شفيق جبري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مخطوطات يمانية

في خزانة كتب الإمام يحيى

أهدى الى خزانة المجمع العلمي العربي حضرة الأمير سيف الإسلام عبد الله (مجلداً من فهرس كتب المكتبة العامة بجامع صنعاء) وقد رأينا أن ننشر هنا طائفة من أسماء مخطوطات نراها ثمينة بالذكر ، جديرة بالنشر ، ونعتمد في أكثر ما نذكره من المخطوطات على ما عثرنا عليه في مجاميع الفهرس .

مجموع (رقم ٩) فيه رسائل مخطوطة للعلامة الأمير محمد بن اسماعيل (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) كتبت في حياته منها :

رسالة في تحقيق مدة الحمل وأقوال العلماء في ذلك .

بحث في جواز الضرب على التهمة .

مجموع (رقم ١١) فيه رسائل مخطوطة للسيوطي منها :

طي اللسان عن ذم الطيلسان ·

إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب ·

رسالة التبري من معرة المعري ·

رسالة الطرطوث في البرغوث [1] ·

اتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء ·

الباحة في السباحة

نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسُمر ·

الأوج في خبر عوج ·

مجموع (رقم ١٢) فيه رسائل مخطوطة لمحمد بن عبد القادر الأهدل منها ثلاث رسائل في موضوع الصندوق الناطق · اثنتان منها للأهدل والأخيرة للهذلي الشافعي:

(١) غاية الانتصار لكون الصندوق الناطق ليس من الأسحار ·

(٢) أنوار الهدى في حكم صندوق الصدا ·

(٣) فتاوى الفلاح على ما في فتوى حِلّ الصندوق والاسترواح ·

(٤) رسالة للأهدل تتضمن جواب سؤال في مسألة الحوايل [2] التجارية ·

مجموع مخطوط (رقم ١٧) فيه مقصورة ابن دريد الصغرى ؟

مجموع مخطوط (رقم ٢٨) فيه غاية النفع في نشر فضائل الزرع لشهاب الدين الرملي ·

مجموع مخطوط (رقم ٣٢) فيه كتاب التعاليق في علم النجوم ·

---

(١) الطرطوث أهملته المعاجم فلعل صوابه الطرثوث بالثاء وهو نبت يؤكل كذا في اللسان · (المغربي)

(٢) المراد بالحوايل التحاويل وهي الحوالات التجارية المعروفة بين التجار أما الصندوق الذي ألفت فيه الرسائل الثلاث فالمراد به ما يسميه العامة (صندوق العجايب) وهو معروف وكاد ينسخ استعماله أو المراد به صندوق الاذاعة (الراديو) المعروف في عصرنا هذا . والمخطوط الذي فيه هذه الرسائل قديم فيكون (الأهدل والهذلي) قديمين . واسرة الأهدل مشهورة بالشرف في بلاد اليمن وقد ترجم صاحب خلاصة الأثر لعدة رجال منها منهم (محمد بن عمر بن عبد القادر الأهدل) توفي سنة ١٠٣٢ هـ فلعله مؤلف الرسالتين · (المغربي)

مجموع مخطوط (رقم ٣٥) فيه نبذة في علم الصياغة رواها احمد بن يوسف الأموي عن بني أعماس ٠

مجموع مخطوط فيه (فلك القاموس في اللغة) وهو شبه مقدمة للقاموس المحيط تأليف السيد عبد القادر بن احمد ٠

مجموع مخطوط (رقم ٥٠) فيه : بحث في الرعد والسحاب للسيد محمد الأمير ٠ وجواب سؤال في بيع النساء له وسؤال في ملك الكفار على المسلمين له ٠

مجموع مخطوط (رقم ٦١) فيه : قصيدة خالد بن صفوان التي سمتها العرب العروس مع شرحها الرسالة الحاتمية في ما أخذه المتنبيء من كلام الحكماء وأدخله في شعره ٠

مجموع مخطوط (رقم ٨٤) فيه : كتاب الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي ٠

مجموع مخطوط (رقم ٨٨) فيه : رسالة صفة حل الزئبق ونحوه ٠

قراضة الذهب في الأدب المنتخب ٠

المستقصى من الأمثال للزمخشري تاريخ نقله سنة ٩٦٧ ٠

أنوار المباني المنتظمة ببدائع المعاني ٠ الملتقطة من شرح ابن جني لديوان المتنبيء ٠

مجموع مخطوط (رقم ٩١) وفيه : عجالة الجواب في الرد على شيمة معاوية الكلاب للسيد صلاح الأخفش ٠

شرح قصيدة الصاحب ابن عباد التي مطلعها :

« قالت أبا القاسم استخففت بالغزل » الخ ٠ للقاضي جعفر بن احمد بن عبد السلام ٠

مناظرة المأمون في أمير المؤمنين علي عليه السلام منقولة (من الصوارم المتنضاة في المناقب المرتضاة) ٠

هذا ما استجمنا ذكره من رسائل المجاميع المخطوطة وباقي الرسائل بل سائر ما في مجلدة الفهرس كلها كتب دينية في الحديث والفقه والعقائد والمناظرات التي يظهر من اسمها أنها مهاترات لا فائدة ترجى من وراء نشرها سوى تكرار القول وترديد الجدل ٠ هذا في مخطوطات الفهرس أما مطبوعاته ففيها النفائس ولكن لا حاجة لنا في ذكرها كما لا يخفى ٠

المغربي

التعريف بابن خلدون

ورحلته غرباً وشرقاً

تأليف عبد الرحمن بن خلدون عارضه بأصوله وعلق حواشيه السيد محمد بن تاويت الطنجي وهو بنحو (٤٥٩) صفحة من قطع الوسط ، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة سنة ١٩٥١ .

أجمع العلماء على إجلال ابن خلدون وانه أحد أفراد قلائل من بين علماء الأمة ولذا عني العلماء بسيرته كما عنوا بأبحاثه وآرائه ليصوروا للناس شخصيته . وهذا مازين للسيد الطنجي العناية بهذا الفصل من تاريخ ابن خلدون ونشره في كتاب مستقل بعد أن عارضه بأصوله وعلق حواشيه . وهذا الفصل من كتاب العبر هو أبعد من أن يعرفنا بابن خلدون لأن التعريف يشمل سيرته الفذة وتحليل شخصيته بصفته عالماً ولا نجد هنا إلا نبذاً من حياته ورحلاته .

كان لابن خلدون قدرة فائقة بالحكم على الأشياء فلم يكتف كغيره بالنقل عن المتقدمين بل جمع ما أخذ منهم وكون من ذلك كله رأيه ، وأراد ابن خلدون أن يقدم للناس سيرته مجردة من كل تعليق ليترك لغيره حسب مذهبه رأيه عن أخلاقه وشخصيته ، والناس قلما يركنون للتراجم التي يصنفها أصحابها لأنفسهم ، وهم أحد رجلين اما معجب بنفسه فيبالغ بقدره أو متواضع فينقص من شأنه . وأما ابن خلدون فقد اعتمد الصدق والبساطة فيما كتبه من سيرته وسجل بها على نفسه بعض هنات خلقية قد يعاب بها ويؤاخذ عليها ولولا اعترافه لما اكتشفت للناس وسلم من لسانهم .

ونشكر ناشر هذا التعريف على عنايته بتحقيقه ووضعه حواشيه ونشره على الصورة التي يريد مؤلفه أن يكون .

دولة بني قلاوون في مصر

الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص ، تأليف الدكتور محمد جمال الدين مسرور مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، جاء في نحو (٤٠٠) صفحة من القطع الوسط ، نشرته دار الفكر العربي في عام ١٩٤٧

عرفنا شغف مؤلف هذا الكتاب باستقصاء تاريخ مصر الاسلامية من بحثه السابق عن عصر الظاهر بيبرس الذي كشف به عن صفحة لا تخلو من أسباب العظمة والمجد ، وعزز ولعه بدراسة ثانية عن مصر في عهد أسرة قلاوون ولا تقل هذه الدراسة عن الأولى شأناً ، فقد استعرض المؤلف في كتابه شؤون مصر الداخلية والخارجية والاقتصادية في عهد هذه الاسرة وأشاد في مناقبها دون أن يبدي رأيه في مساوئ حكمها . ولو أراد منصف أن يحاسب هذه الأسرة بحسب الوقائع التي بسطها المؤلف والحوادث التي سردها في كتابه لخفت موازينها وتضاءلت معها جميع حسناتها . ولا يجد القارئ في سيرتها الا سلسلة من الغدر والمؤامرات والاغتيالات والتنافس على الحكم واستباحة الأموال وهتك الأعراض واهمال شؤون الدفاع عن البلاد حتى طمعت بها أضعف الدويلات والامارات ، ولولا انشغال أوربا وقتئذ بحروب المئة سنة لكانت مصر وبلاد الشام لقمة سائغة للأعداء .

وقد عثرت على بعض أخطاء مطبعية لم يشر اليها المؤلف في جدول التصحيحات رأيت التنبيه اليها ومنها :

صفحة	خطأ	صواب
١٠٥	مثالث المشركين	مثالب المشركين
١٣٣	الى الجيل الأحمر	الى الجبل الأحمر
١٣٥	بعدبتين	بعذبتين

صفحة	خطأ	صواب
١٣٩	الجخان	الوق خان او الوغ خان
١٨٣	وليكف الكف العادية	وليكف أكف العادية
١٨٥	قدمنه في عنقه	قدمه في عنقه
٢٠٣	سنه ١٣٠٥	سنة ١٣٠٣
٢٢١	صراي	صراي وتسمى أيضاً بغجه سراي (راجع حوادث سنة ٧٣٠ من تاريخ ابن كثير) .
٢٢٩	اطنه	اذنة أو ادنة
٣١٦	ويغتسلون منه أمراساً	ويفتلون منه أمراساً

وكان على المؤلف أن يذكر أسماء الأعلام الافرنجية بالحروف العربية أيضاً وأن يعرب أسماء الكتب التي نقل عنها لأن أكثر القراء لا يعرفون اللغات الغربية ولا الحروف اللاتينية .

وحبذا لو اقتدى مؤرخو بقية الأقطار العربية بمؤلف هذا الكتاب وأفردوا لكل عهد دراسة مستقلة لأنه يتعذر على الفرد أن يحيط بدقائق تاريخ أمة في جميع عهودها ويعالجها معالجة عصرية .

جعفر الحسني

http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ السلالة الحمدانية في سورية والجزيرة

تأليف ماريوس كانار (الجزء الأول)

منشورات كلية الآداب بالجزائر سنة ١٩٥١، في ٨٦٢ صفحة

Histoire de la Dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie-tome Premier Publications de la Faculté des lettres d'Alger, Alger 1951, 862 Pages.

نشر الأستاذ ماريوس كانار هذا الكتاب إثر جهود طويلة آتت أكلها اليوم بعد دراسة عشرين عاماً في الموضوع؛ سافر لأجلها المستشرق فتعرف الى الأرض والتربة والكتب والمخطوطات والخزائن، وأكب فيها على تفهم العصر الحمداني من نواحيه المختلفة؛ فجمع له ما يستطيع الدارس جمعه من مصادر ومراجع ووثائق.

وقد بدأ بجمع المصادر العربية المتعلقة بالعصر الحمداني فوفق إلى اصطياد مخطوطاته ومطبوعاته ونشرها على الناس سنة ١٩٣٤ في كتاب قيم عنوانه: «نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني». وهو ما يزال مرجعاً لكل باحث عن حياة الأمير وعصره في مختلف نواحيه السياسية والتاريخية والأدبية.

ثم عكف بعد ذلك على دراسة النصوص اليونانية والأجنبية الأخرى التي عاصرت الأمير أو جاءت بعده فتحدثت عن حروب العرب ضدّ الروم والبلغار والروس والأرمن، ووصفت المعارك ورسمت حياة العرب وأسهبت في ذكر المواقع والأماكن والقصور والآثار. وهذا ثمين كذلك لا يقلّ فائدةً عن المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة؛ وقد صدر في أجزاء ثلاثة في اللغة الفرنسية بالاشتراك مع غيره من الباحثين والمؤرخين بعنوان «العرب والروم». وهذا الكتاب

يعرض علينا آراء الطرفين المتحاربين والأمتين المتغالبتين ، وبمناقشة هذه الآراء تنجلي الحقيقة التاريخية .

ولما تقدم الى الجامعة برسالة الدكتوراه منذ عامين جعل من النصوص الأولى والنصوص الأخرى ميداناً لبحثه ودرسه فكانت الرسالة في جزءين ، صدر منها الجزء الأول وهو في قرابة تسعمائة صفحة ، خصه بدراسة الناحية الجغرافية والتاريخية للأقاليم التي كانت مسرحاً لحوادث الحمدانيين ، وجعل الثاني لرسم الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والأدبية في المملكة الحمدانية ؛ وهذا لم يصدر بعدُ .

أما الأول فقد بدأه بتعريف المصادر العربية التي تحدثت عن العصر والحمدانيين تعريفاً دقيقاً جامعاً لم تندّ عنه مخطوطة أو صحيفة أو نقش على حجر ، حتى لم يترك فيه قولاً لقائل ، وتعريفه أقرب الى تحليل الكتاب كله وبيان فائدته وأسلوبه وطريقة بحثه . ثم عقب على ذلك بتحليل المصادر الأجنبية التاريخية والأدبية فقربها من القارئ وعرّفه بقيمتها ونفعها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعد تحليل المصادر شرع في رسم الأقاليم فوصف الجزيرة وأقسامها وقراها ومدنها وأنهارها في تفصيل وايضاح ؛ ثم تطرق الى العراق وانتقل الى الثغور والعواصم كما تحدّث عنها العرب لعهدهم والروم لزمانهم ، وذلك كله في قرابة ثلاثمائة صفحة . ووقف بعد ذلك عند الحمدانيين يبيّن تاريخ أسرتهم ونشأتهم وما كان لهم من ثورة وأمجاد في بغداد والموصل وماوقع لهم من طموح في الاستيلاء على ارمينية وبلاد الروم ، الى أن بلغ بهم حلب فتصدى لحكمهم فيها وحروبهم ضد المصريين أو ضد القبائل المغيرة ، ولم يقف عند سيف الدولة بل جعل كتابه في الحديث عن الأسرة الحمدانية كلها ، فبحث في سعد الدولة ثم في ابنه سعيد الدولة ، فنقل لنا حوادث مئة وخمسين عاماً من تاريخ هذه السلالة إلى ان انقضى حكمهم . وذلك في قرابة أربعمائة صفحة .

وختم كتابه في تفصيل الحروب التي دارت بين الحمدانيين والروم فنظر فيها من جانبين وعرض لها من ناحيتين ووقف بينهما وقفة المؤرخ العالم فاستغرق قرابة مئتي صفحة ختم بها الجزء الأول .

ولعلنا بهذا التحليل السريع رسمنا هيكل الكتاب ولم نعرض للتفصيل والمناقشة فذلك لا تكفيه صفحات النقد والتقريظ وإنما يحوجنا الى كتاب في الموضوع ، فصدور هذا البحث بعدُ عند المؤرخين من علماء المشرقيات حدثاً في الكشف عن عصر تلاحم فيه الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية فكان تمهيداً لها وتجربة في جسّ النبض - كما يقولون - :

ونحب أن نشهد بفضل الأستاذ ماريوس كانار على الحمدانيين فقد بسط السبيل للباحثين ليعتمدوا على المصوّرات والوثائق والمخطوطات التي جعلها بين أيديهم عربية كانت أو أجنبية يفيدون منها حين يبسطون القلم في الحديث عن عصر الحمدانيين سواء فيهم الأدباء والمؤرخون ، فقد عرض المؤلف للدواوين والكتب والأحجار فناقش ما تقدمه من عون وما تسديه من يد في ايضاح العصر والتعريف به .

فالكتاب جدير بالدرس والتقدير ، جدير بالترجمة والنقل ، وهو من دعائم الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة عن تاريخ بلادنا وجغرافية أرضنا وفائدة دواويننا وأدبنا ؛ وهو يضيف يداً الى أيادي المخلصين من المستعربين الذين يريدون من بحوثهم وجه الله والحقيقة في حياد علميّ وتثبت مدرسي . فللأستاذ ماريوس كانار أوفر الشكر على ما قدم ويقدّم في سبيل الفكر والتاريخ .

دمشق : الدكتور سامي الدهان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اكسير المحققين في القرن العشرين

تأليف : المحامي موسى نجيب برنس – بيروت

الكتاب : يقع هذا الكتاب في سبعين ومئتي صفحة من القطع المتوسط يضاف اليها ما يقرب من مئة صفحة استغرقها اهداء الكتاب ثم التعريف به مع عدة مقدمات كتبها بعض رجال القانون والطب الشرعي في بيروت الى جانب ترجمات لها باللغة الايطالية أو بها وبالفرنسية .

والنسخة التي نكتب عنها تحمل تاريخ ٢٧ ايلول ١٩٥١ تحت جملة « طبعة استثنائية » صادرة عن مطابع الدنيا في بيروت بحرف صغير وعلى ورق جيد .

المؤلف : كاتب أديب واسع الاطلاع ، ولا أشك أنه خطيب أو يجيد المرافعة أمام القضاء . وهو يقدم اليوم كتابه الأول الى الخزانة الحقوقية بعد أن قدم الى الخزانة الأدبية عام ١٩٤٨ كتيبا باسم « جولة في ربوع أدونيس » قدم له ميخائيل نعيمة .

الموضوع : موضوع الكتاب جزء من بحث عظيم الشأن جديد في اللغة العربية ، رغم أن الفكرة فيه تطرق اليها فقهاء المسلمين وأولوها عنايتهم وبحثوها بحثاً مستفيضاً أخذوه من العقل والشرع ، وهذه الفكرة هي « صحة الاقرار » ، أما هذا الكتاب فيدور على « انتزاع الاقرار » وقد قسمه المؤلف الى ثلاثة أبواب : بحث في الأول منها عن « مدى سلطة المحقق في الحصول على اقرار الظنين » وعن « قيمة الاقرار في الدعاوى الجزائية » وفي الباب الثاني بحث عن « التحقيق الجزائي من الناحية العلمية » وفي الباب الثالث بحث عن المخدر المسمى « مصل الحقيقة » فأطلق عليه بالنسبة لرجال التحقيق الجنائي اسم « الاكسير » هذه اللفظة

التي تدل على « ماء الحياة » او على تلك المادة السحرية التي حلم بالحصول عليها قدماء الفلاسفة ورجال الكيمياء .

يعرض المؤلف لعصور الارهاب والتعذيب التي مر بها العالم ويقول : (وظل التعذيب في الغرب احدى الوسائل التي كانوا يلجأون اليها في حمل المتهم على الاقرار ، ومنذ عهد الثورة أخذ تنظيم التحقيق يتطور بفضل الوعي العام وانتشار الثقافة ، فوجد في العالم من أهل الفقه والمعرفة من جعلوا المتهم أمانة في عنق الحقق وأوصوا به خيراً كما كان هناك من حاول فتح الباب في وجهه ، فاستعان بالمحامي لدى الشدة) .

ثم يستمر المؤلف في حديثه عن الإرهاب والتعذيب وكيف تطور مع المدنية الحديثة فأخذت صور العنف والاكراه المادي تختفي وراء الأساليب العصرية التي هي - على حد تعبيره - ذات صبغة شيطانية توصلت البشرية معها الى مشاهدة ما هنالك من المآسي المروعة التي ارتكبت في أحضان ما يعرف اليوم باسم « جنون الاتهام الذاتي » حتى لكأن الانسان قد أمسى وهو أشد ما يكون فرحا ومسروراً لرؤيته نفسه يحفر قبره بظلفه .

ويحدثنا المؤلف مطولاً عن تلك الأساليب قائلاً : (لقد راحت الكيمياء والكهرباء وعلم الجراحة تقوم مقام رجل التحري صاحب الزنود المفتولة والسياط المجدولة) الى أن يقول : (وهكذا انتقلنا من الضرب بالسياط الى الصدمة الكهربائية ، من عذاب الوقوف أياماً والأيادي مكبلة بالأصفاد الى الاغراق في المغاطس المثلجة) الى أن يحدثنا عن الدكتور جاك لي الطبيب الذي اعترف بأنه قد وفق بفضل المبضع الى استئصال فكرة الاجرام من المجرمين ، فيهاجمه بعنف وجميع القائلين بنظريات مكافحة الاجرام بالعمليات الجراحية مستشهداً بقول أحد القضاة البلجيكيين : (اننا اذا لم نرد المبضع الى مكانه فنحن سائرون على شفا الهاوية) .

ثم يحدثنا المؤلف عن المستحضرات الكيماوية الحديثة « التي تذل العنفوان البشري » و « تغمز من قناة الحرية الفكرية » و « تفقد الانسان سيادته حتى على ضميره » فيحدثنا مثلاً عن « الاكتودرون » و « المورفين » و « المسكالين » و « السكوبولامين » و « البانتوتال » وكلها من أنواع المخدرات التي استعملت في الغرب في سبيل أخذ اقرار المتهمين وهم فاقدوا الارادة بتأثيرها .

والمؤلف وهو يذكر آخر المستحضرات المعروف باسم ـ مصل الحقيقة ـ يسميه باكسير المحققين ـ الاسم الذي توج به كتابه ـ وهو ينادي بوجوب تحريم استعمال هذا المخدر لا لأنه ، من الوجهة الانسانية أشد وقعاً على الكرامة الذاتية من التعذيب المادي ، بل لأنه من الوجهة العلمية لا يمكن الركون الى نتائجه ، لأن الباطن الانساني ـ كما يقول ـ عبارة عن بيئة يرتع فيها جنباً الى جنب كثير الحقائق والخيالات فلا يمكن الوثوق عند فقدان الارادة من كون الحقائق وحدها هي التي تجري على لسانهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويتهكم المؤلف بنفر من العلماء يدعون بان « التحليل بالمخدر » انما هو أسلوب لمعرفة الحقائق بدون تعذيب يتم به أسلوب « التحليل النفسي » الذي تمت له السيادة في علم الاجرام الحديث ، ويرد عليهم قائلاً بأن التحليل النفسي يرمي الى معرفة المركبات العاطفية المكبوتة منذ عهد الطفولة ، بينما التحليل بالمخدر هو انتهاك لحرمة الضمير الانساني ، ويؤيد المؤلف رأيه بآراء كثير من العلماء والفلاسفة ويستشهد بالأستاذ كوليليون البلجيكي اذ خطب في مؤتمر ليبيج فقال : (كفى ! كفى ! ان لفي تصرف المحققين انتهاكاً فاضحاً لحرمة الباطن المقدس ! قفوا أيها المحققون عند العتبة من هيكل الاقداس ، ولا تدنوا من كعبة الانسانية الحرام .. ! ان اقتحامكم باطن هذا المقدس الرهيب ، اعني به هذا الكائن المعبر عنه بلفظ « انا » لهو جريمة أشد هوانا مما تدعون التفتيش عنه) .

ثم يختم المؤلف كتابه بفذلكة يعرض فيها رأيه صريحاً واضحاً ويقول في الرد على بعض المجددين الذين يرون في استخدام «التخدير» لكشف الجرائم خدمة للمجتمع : (كلا ! بل الف كلا ! ان واجب كل منا ان يحول دون تطبيق مثل هذه الأساليب الجائرة حتى ولو اتهمنا بالرجعية والتأخر ، لأن هناك معارضة مقدسة تقاوم كل تقدم جائر ورقي مزيف) .

نقد الكتاب : لا يمكن تصنيف هذا الكتاب ـ على جلال موضوعه ـ بين الكتب العلمية ، ولا هو من كتب القانون ، وأقرب الأوصاف له ـ على ما نرى ـ انه من كتب الأدب القانوني ، كمذكرات رجال القانون وكتب المرافعات والقضايا الشهيرة والصور القضائية ، والذي نظنه ان المؤلف استوحى كتابه من مرافعة عدها للدفاع عن متهم سبق اقراره بالجريمة فاستطاع بما أوتيه من حجة وسعة اطلاع الى انقاذ موكله ، مما جعله يفكر في الدفاع عن كل المتهمين الذين ينتزع الاقرار منهم انتزاعاً ، فعمد الى تأليف هذا الكتاب يهاجم فيه الأساليب المختلفة لانتزاع الاقرار ، وفي مقدمتها أساليب التخدير الحديثة ، فكان كتابه ـ رغم التقسيم الذي فرضه على نفسه ـ مجموعة مرافعات منسجمة في أسلوبها متحدة في هدفها وقد صيغت كلها صياغة أدبية تعتمد على أسلوب الخطابة في التكرار والاعادة حيناً وفي التهويل والتحذير أحياناً كثيرة .

ان أسلوب الكتاب في جملته حسن رغم ما فيه من تكرار واسهاب في كثير من مقاطعه ، ورغم بعض التعابير الضعيفة ، او التشابيه غير الدقيقة التي يحويها مثل : « كأنما يغرف من بحر الدعاية غرف المعدم الجائع » أو « نوع من البراز » .

ولغة الكتاب تكاد تكون عالية لولا ما يشوبها من أغلاط شائعة كقول المؤلف : « الغير مشروع » و « تبرئة الغير مسؤولين » .

ومما لا نقر المؤلف عليه اتباعه نسقاً قديماً في تصوير الأسماء الأعجمية يبعدها عن لفظها الأصلي وعما ألف الناس كتابته في العصر الحديث كقوله : « جونيف »

و « لياج » و « غريبنبارغ » و « امبربار » و « فيبار » و « البنسالين » .

ومما أخذناه على المؤلف أنه في الفصل الذي عرض فيه آراء بعض علماء الغرب في ضرورة قبول مبدأ شرعية استعمال المخدر ضمن قيود وشروط تمنع الافتئات على كرامة الانسان ، كاد يضعف ايمانه بوجوب تحريم جميع الأساليب التي تمكن الانسان من السيطرة على ضمير أخيه الانسان رغم ارادته ، اذ رأيناه وكأنه انساق مع أولئك العلماء في امكان التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، ولكن المؤلف يعود الى حماسه وايمانه في نهاية كتابه ليعلن ضرورة تحريم استعمال المخدر في جميع الحالات وهو يهيب بالشرق ورجاله الى التساند في الدفاع عن كرامة الانسان والوقوف في وجه الأساليب التي أخذ رجال الغرب ومفكروه في الشكوى منها وذلك قبل أن يتشوه وجه الشرق اذا أخذ بها .

عدنان الخطيب

تاريخ مدينة دمشق

تصنيف الحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١)

مطبوعات المجمع العلمي العربي (المجلدة الاولى) بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد

في نحو ٩٠٠ صفحة

يعد تاريخ ابن عساكر أكبر تاريخ في العربية . وموضوعه تاريخ مدينة دمشق وتراجم من دخلها أو سكنها أو اجتاز بها أو باحدى ضواحيها .

ودمشق أول عاصمة للدولة العربية متوسطة بين بلاد المغرب : أندلس وتونس ومراكش ومصر ، وبين بلاد المشرق : العراق وايران وما الى ذلك من أقطار الإسلام . كما يعد مسجدها (الجامع الأموي) أحد عجائب الدنيا . لذلك كانت مركزاً مهماً يمر بها أو يقصد زيارتها أكبر عدد من أعلام العرب والمسلمين . ترجم ابن عساكر لهؤلاء وجمع فيهم أكبر نصوص موثوق بها فكان تاريخه أعظم مجموعة تاريخية أثارت اعجاب العلماء وأكبارهم .

وحينما جرى الحديث في هذا التاريخ واستعظامه بحضور علامة مصر ومحدثها «الحافظ المنذري» أخرج مجلداً وأراه للحاضرين وقال في مؤلفه : ماأظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبه .

وعلق القاضي ابن خلكان على كلام أستاذه المنذري بقوله : ولقد قال الحق . ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول . ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يصنع مثله . وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما كاد يحصرها العد .

يحمل هذا التاريخ نحو عشرة آلاف ترجمة لمشاهير الاسلام وفيه السيرة النبوية مفصلة وسيرة الخلفاء الراشدين ممن دخلوا دمشق أو بعض أعمالها في الجاهلية أو الاسلام وفيه تراجم الخلفاء الأمويين وقوادهم وعلمائهم وتراجم غيرهم من العراقيين والحجازيين واليمنيين ممن ضمتهم صفين وفيه نصوص مشبعة عن العهد الأموي والبلاد الأندلسية وفتوحها وادارتها وقوادها مما يندر وجود مثله في غيره .

وقد ترجم لأشهر خلفاء بني العباس كهارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل وأشهر علماء ذلك العصر كالأوزاعي والشافعي وابن حنبل واصحاب الكتب الستة وترجم للجاحظ وأمثاله ، وأشهر قواد ذلك العصر كأبي مسلم الخراساني وطاهر ابن الحسين واحمد بن طولون وولده خمارويه وكبار الشعراء كأبي نواس والبحتري وابي تمام وغيرهم .

ويأتي في تراجم هؤلاء وأمثالهم بنصوص تتعلق بهم وذلك عن مصادر أصبحت مفقودة يصلح كثير منها أن يكون كتاباً مستقلاً لغزارتها وكثرة مادتها .

وفي سنة (١٣٢٩ ه) قصد أستاذنا المرحوم الشيخ عبد القادر بدران طبع هذا التاريخ فاصطدم بعقبات جمة أعظمها كثرة الخطأ في النسختين المخطوطتين بالمكتبة الظاهرية بدمشق فعمد الى اختصاره وتهذيبه ليبتعد عن الخطأ الذي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيها وليحذف ما لم يظهر له معناه ولم يهتد الى صوابه . ومع ذلك فلم يسلم ما طبعه منه من الخطأ الكثير والتحريف . وقد طبع من هذا المختصر سبعة أجزاء كانت سبباً لتعريف العلماء والباحثين قيمة هذا التاريخ .

وظل العلماء ينتظرون طبعه طبعة علمية تجعلهم يثقون بما فيه من نصوص . وكانوا ينتظرون أن يقوم بهذا العمل المجمع العلمي العربي لأن اسم الكتاب : «تاريخ مدينة دمشق» وقد حقق المجمع العلمي حسن ظن العلماء به فألف لجنة من علماء دمشق وأدبائها لتحقيقه وأتى بأجزاء كثيرة مصورة من هذا الكتاب من خارج دمشق وعهد بتحقيق الجزء الأول منه الى الأستاذ صلاح الدين المنجد فقام بتحقيق ما أسند اليه خير قيام ، وبذل جهداً كبيراً في معرفة اصطلاحات المؤلف وشيوخه ورجال أسانيده التي يسوقها في أول الخبر أو الحديث . وذلل صعاباً جمة يفيد منها كل من سيحقق بعده في هذا التاريخ . وقد وضع في أوله مقدمة تبلغ ستين صفحة ضرب بها مثلاً حياً للمحققين والناشرين وضع فيها ترجمة حافلة للمؤلف على الطرق الحديثة ضمنها كل ما يتعلق بالمؤلف كما ضمنها شجرة نسب بني عساكر ومخططاً للعالم الاسلامي أشار الى المدن التي رحل اليها المؤلف لطلب العلم وسماع الحديث ثم ترجم للتاريخ نفسه فحلله تحليلاً دقيقاً وقارن بينه وبين تاريخ بغداد للخطيب . وبين مواطن النقد في كلا التاريخين ثم ذكر مختصرات تاريخ ابن عساكر والذيول التي وضعت عليه وأماكن النسخ المعروفة منها في خزائن العالم ثم وضع فهارس في آخر الكتاب .

وبعد هذا كله فقد توج هذا الجزء في أوله بكلمة ومقدمة للأستاذ الجليل رئيس المجمع العلمي العربي فزادته رونقاً وكمالاً .

فالى المجمع العلمي العربي ، والى الأستاذ المنجد نزف تهانينا على النجاح الذي أصابه هذا العمل العلمي الكبير وقد ظهر ذلك في أول جزء منه . والرجاء أن يطرد العمل في اخراج بقية الأجزاء .

محمد أحمد دهمان

تراكيب ومفردات غير فصيحة

من يستمع الى اذاعات المذياع ويتلو صحف الأخبار يسقط كل يوم على ألفاظ وتراكيب تكاد تكون جديدة لم يسبق للقدماء استعمالها ولا عرفتها العربية فيما وصل الينا من دواوينها ومعجماتها وشعرها ونثرها . كلمات وتراكيب يستعملها بعض الكتاب وهي مرتجلة أو معربة عن اللغات الافرنجية تعريباً سقيماً فلا تلبث الصحف أن تتناقلها ، وربما سرت الى أقلام من كانوا على شيء من الفصاحة من دون أن ينتبهوا من أين أتتهم ، يستعملونها وهم لا يعرفون الا أن فلاناً من الصحافيين استعملها وهم لا يلزمون أن يبحثوا في أصلها لأن ذلك ليس من شأنهم .

ومما كثر استعماله : « وجهة نظر » تركيب افرنجي محض ترجمة : Son point de vue و « نظروا المسألة على ضوء ما لديهم من المعلومات » وهذا الضوء أيضاً مما سرى من لغة الافرنج ، وكذلك « مشبع بالاتفاق » . ومما كثر ترداده بأخرة « الامكانيات » ولعلها ترجمة Les possibilités الفرنسية كثرت كثرة زائدة كما كثرت منذ مدة لفظة « الميل والميلان » وهذه وان كانت عربية لكن الأذواق مجتها لكثرة ما استعملت في السياسة وفي غيرها من الموضوعات . وكلمة الامكانيات القبيحة كان الأولى اختيار صيغة أخرى للتعبير عن هذا المعنى فيقال : الامكان ، واللغة متسعة بفضل الله بألفاظها وتراكيبها على ما لا يكتب. فيما نحسب لغة من لغات العالم .

وقد وقع كثير من مثل هذا التركيب لا يحضرني منه الا « تربيوية » نسبة الى التربية ، نسبة تنافي القواعد وعلى سقمها سرت الى كتب التعليم المعتمدة في مدارس مصر والشام والعراق والسبب في سرايتها على ما أقدر ان أول من استعملها اعجمي عن اللغة حاول أن يتعرب ويعرب وكان على رأس بعض وزارات المعارف فحمى بمنصبه هذه اللفظة السمجة وما استطاع العارفون انكارها عليه

مخافة أن ينقم منهم . وهذا الرجل هو الذي اخترع ـ جزاه الله خيراً ـ لفظة القبتاريخية للتعبير عما قبل التاريخ .

ومن الجديد «لم يطلب أي شيء منه» ، «لم تكن له أية فرصة للعمل» ، وكلة أي في هذا الموضع لم تعرف في كلام فصيح ويمكن اسقاطها ويصح المعنى بدونها ، «حول وضع فلان» ، «تحوم حوله الشبهات» ، و«يبحث حول المسألة» ، والأولى «في وضع فلان» ، و «يبحث في المسألة» وهي تغني عن هذا التركيب العجيب ونظنه من استعمالات الفرنج تعريب Autour de وليس من تراكيب الفصحاء في شيء . ومنها قولهم «هذا لا يصح اطلاقاً» لعلهم يقصدون مطلقاً وهذه كثرت في كلام المصريين . ومن جديدهم «يهدف الى» يقصدون يرمي الى أو يقصد الى ومعنى يهدف الى باللغة العربية يقرب ، وفي الأساس : يهدف الى الخمسين أي يقترب منها ، ومنه «التضحية» «ضحى بنفسه» تعريب Sacrifice و Se sacrifier وهما من تعابير الافرنج ، ومنها «كوسيلة لتحقيق المطالب» «كخبير مالي» ، «الاعتراض على اسمه كرجل» ، «لا أستطيع كرجل قانون» ، وكل هذه الكافات من مواضعات الفرنج يمكن الاستغناء عنها أو استعمال صيغ أخرى لا تخل بالمعنى المراد ، ولا يعمد الى هذه الصيغ التي ماشمت روح العربية . «المعروفين في حقول الأدب والمال» وهذه الحقول ما عهد استعمالها عند الفصحاء . «اشتعلت بلدة كذا ابتهاجاً بالحدث الجديد» من أسمج الاستعارات - «هائجة ضد شركة كذا» ، «الدعوى المرفوعة ضد النائب» والأولى هاج على ومرفوعة على . «قرار هام» و «حدث هام» وليس لهذا اللفظ أثر في اللغة على ما عرفنا والأولى أن يقال مهم . «الأمر الذي لا يتفق» والأولى : مما لا يتفق . «مدير عام مصلحة الحجر الصحي» الأولى مدير الحجر الصحي العام وهذه تكثر في عبارات المصريين ولفظة «مصلحة» لا أثر لها في اللغة بهذا المعنى والأولى أن يقال دائرة أو ديوان . «اتخذت الأمم المتحدة قرارات في صالح البلاد المستعمرة» وهذا الصالح غير صالحة في الاستعمال ، والأولى الاستعاضة عنها بمصلحة .

وشاع كثيراً هذا التركيب الجديد « وضع النقط على الحروف » والأصل فيه على حرف I وفي اللغة الافرنجية : Mettre les points sur les I أي وضع النقاط على حرف (I) أي أفصح بصورة صريحة ودقيقة معاً بحيث لم يترك سبيلاً الى الشك .

من العسلطات المحدثة « بسبب ارتقاء رصيده من حوادث السرقة » استعارات بعيدة عن مناحي البلغاء . « يدر عليه أرباحاً خيالية » ترجمة Fabuleux أي فاحشة لا تصدق ولفظة فاحشة أو مفرطة تقوم مقامها . « يكون المجلس مشكلاً » الأولى مؤلفاً والتشكيل بهذا المعنى لم ترد في المعاجم . « القضاء على أي حركة تهدف الى تقدم الافريقيين » الأولى اصلاح هذه الجملة هكذا : القضاء على كل حركة يقصد بها تقدم الافريقيين ، أو ما هذا معناه . « يأمل بدوره تلبية هذه الدعوة » تركيب ما شم رائحة العربية ، « كان الجو مفعماً بروح الوطنية الديمقراطية الحقة التي أضفاها الرئيس بوداعته وبشاشته » واذا أريد إصلاح الجملة على المناحي العربية فيقال : تجلى ، بدون جو مفعم ، وبدل أضفاها أفاضها . « ذلك العاقل دوماً » انها ترجمة حرفية Il est toujours sage وهي ترجمة رديئة ويستعاض عن « دوماً » بدائماً أو أبداً أو نحو ذلك . « طريقة التقدمية » و « التقدمية » بشعة وان كان لفظ التقدم عربياً . « نوعاً ما » ، « قريته الجديدة النموذجية » ، « ازدهرت البلاد صناعياً وتجارياً وزراعياً » ، « تؤمن ربحاً » أي تضمنه . « كانت مرغوبة » أي مرغوباً فيها ، « تفكيراً جدياً » ، « تعمل جدياً » أي بجد ، « أخذ من الباقي وسطياً » ، « استدامة هذه النفقات » يريد دوامها ومعنى استدام حلق الطائر في الجو وهو غير المراد هنا . « دوائر متضخمة بالموظفين » الأولى غاصة ، « كان مصيباً اجتماعياً واقتصادياً » ، « حاز على » ، « الحائز على شهادة كذا » ، وحاز لا يتعدى بعلى فيقال حائز الشهادة - الى غير ذلك .

هذا بعض ما يرتكبه كتاب لا يطلب منهم أن تخلو كتابتهم من كل عيب

وخصوصاً من يطلب منهم الاسراع في نقل أفكارهم وأفكار غيرهم من رجال الصحافة • ولكن مثل هذه الألفاظ سرت الى أقلام من وقع الاجماع على أنهم سادة رجال الأدب وسدنة هياكل البيان • أخذوها في الحداثة ولم يحسنوا التفلت من سلطانها بعد تمكنهم من الآداب • فتراهم يقولون « يلعب الشعر دوره » ، « يلعب موضوع الفكاهة دوره » ، « لعب دوراً كبيراً » ، « لعب البيان دوراً كبير الخطر » ، « هيأته للدور الذي لعبه » كأن اللغة ضاقت حتى يلجأ مثل هذا العالم الى لفظة الدور أو هذا التعبير الافرنجي المحض وعندنا عشرات من تعابيرنا ما نقابله به ويغنينا عن هذا التركيب الافرنجي •

وجاءنا السيد الكاتب بألفاظ افرنجية لها أيضاً ما يقابلها كقوله اللغات « الكلاسيكية » أي الأمهات او الراقية ، وقوله « السيكولوجي » و« البيداجوجي » الخ وكله مما لا يصعب عليه أن يورد ما يقابله من الفصحى •

أما بعد فقد كان العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي عليه الرحمة من أول من انتبه من علماء اللغة المعاصرين الى ما يقع للصحف من هفوات لغوية في الألفاظ والتراكيب فكتب مقالات سماها « لغة الجرائد » ثم جمعها في كتاب برأسه فتداوله الأدباء وانتفع به الكتاب والمؤلفون • وتعاور هذا الموضوع علماء اللغة فنهم من أقرَّ الشيخ اليازجي على رأيه في سقم بعض الألفاظ والتراكيب بجملتها ومنهم من نقد بعضها وخرَّج لها التخاريج كما فعل صديقنا العلامة سليم الجندي • ولا أعرف اليوم غير مجلة واحدة تعاني هذا الموضوع اللغوي الجليل •

وياحبذا لو تفضل بعض اخواننا من المعنيين بالبحث في اللغة وتمييز بهرجها من صحيحها وكتبوا لنا رسالة ثانية في لغة الجرائد لهذا العهد وما جد فيها من تراكيب وألفاظ • فاللغة عرضة أبداً لدخول الجديد عليها مما لم يعهد استعماله وسيطرد ذلك ما دام العلم يسير سيراً مربعاً والأفكار تتسع فتمس الحاجة الى التعبير عنها وتصويرها حتى تؤدي المراد منها • واللغات كسائر ما في الكائنات تنمو وتذبل وتحتاج في نموها الى جديد وفي ذبولها الى ما يستعاض عنه ويكون على نضرة وجميل أرج •

محمد كردعلي

بين الفصحى والعامية

كتب الاستاذ محمد زكي عبد القادر في جريدة «الأخبار» المصرية تحت عنوان «نحو النور» ما يأتي :

«كم أشفق على هؤلاء التلاميذ ، وهم في مطلع مرحلة التعليم الابتدائي ، حين نفرض عليهم حفظ كلمات عربية صميمة ، يصعب علينا نحن الكبار حفظها ، واليك بعض الكلمات المقررة على تلاميذ السنة الثانية الابتدائية في مادة المحادثة العربية أنقلها من الكتاب المقرر لهم :

الكنة = البلكونة . الدربئة = البرافان . الكلة = الناموسية .
المشوش = الفوطة . السكردان = البوفيه . الشجاج = السيفون .
الصيبور = المطبقية . التاجود = البرميل . الانبج = المانجو .

وأنا حين أنقل اليك هذه الأسماء ، أريد أن أصور لك ما يعانيه هؤلاء الصغار .

عيسى متولي

وأنا أقول لك ولوزارة المعارف وللمجمع اللغوي انها جريمة في حق اللغة العربية وفي حق الأولاد وفي حق الأجيال القادمة أن نتمسك بهذا السخف ، ونصر على أن نجد لكل كلمة أوربية أو امريكية اسماً عربياً صحيحاً لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف ...

ولست أعرف بأي عقلية نفكر ؟ .. ان كل اللغات دخلت عليها كلمات وعبارات من اللغات الأخرى . واللغة العربية نفسها ليست خالصة ، فان فيها عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والهندية وليس في هذا ما يشينها ، فانها سنة التطور ، وحاجة الارتباط والتبادل بين الشعوب .

واللغات كالحضارات والعادات والتقاليد وككل مظهر من مظاهر النشاط الانساني لا يمكن أن تقف بمعزل عن التيارات العالمية ، لا بد ان تعطي وتأخذ ، وتندمج في غيرها ويندمج غيرها فيها .

وقد أخذت اللغات الأوربية كثيراً من الألفاظ اللاتينية ، وتكاد ترتد جذور التعبير الانساني بالكلام الى أصول واحدة . واللغة وسيلة للتفاهم وليست حلية للتفاخر . وعلى قدر سهولتها ووضوحها وليونتها يكون ذيوعها وانتشارها ، فلماذا نحاول أن نعقد لغتنا ونجعلها أضحوكة بينا نحن الذين نتحدث بها ؟ لماذا نحاول أن نجعل كلمة « الكنة » بدلاً من البلكونة ، وكلمة « السكردان » بدل البوفيه ، وكلمة « الثجاج » بدل السيفون ... أيها أبسط وأسهل وأقرب تعبيراً عن المقصود المفهوم ؟ أم نريد أن نتحدث بالألغاز ؟

ثم هل يحسب المجمع اللغوي المحترم بأعضائه الأعلام أن استعمال الكلمات وذيوعها وانتشارها يمكن أن يتم بقرارات ؟ لم يبق الا أن يصدروا مراسيم ويفرضوا عقوبات .

اني أحرض علناً أولادنا تلاميذ المدارس الابتدائية على الكف عن هذا الهذر السخيف ، وأحرض علناً المدرسين الأفاضل أن يكفوا عن ازعاج التلاميذ وافساد ذوقهم بهذه الكلمات الثقيلة السمجة .

أحرض هؤلاء وهؤلاء لا كرهاً في اللغة العربية ، ولكن حباً لها واشفاقاً عليها ، أن تنمو كراهتها في نفوس الصبيان وهم يرونها تصر أن تسمي « السيفون » وهو لفظ رقيق باسم « الثجاج » وهو لفظ ثقيل ... سامح الله المجمع اللغوي ، ولكن لا سامح وزارة المعارف التي أقرت هذا السخف .

محمد زكي عبد القادر

وجاء في الجريدة نفسها بتعليق المعلق الأول ما يلي :

« اطلعت على كلمتكم الخاصة بتعريب الكلمات الأجنبية الى عبارات عربية يصعب على الصغار كما يصعب على الكبار استيعابها . وهذا الوضع خطأ كبير يرجع باللغة العربية الى الوراء . وأرى أن يتبع أولو الأمر في تعريب الكلمات الأجنبية ما يتفق مع ألفاظها الافرنجية . فهذا يرقى باللغة العربية الى مستوى اللغات الأخرى . وليس في ذلك بدعة فالقرآن الكريم نفسه يحوي عشرات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكلمات الأعجمية عربها التنزيل ، كما أخذ الافرنج عن العرب كثيراً من ألفاظهم العربية الخاصة بالتشريع البحري وقت الحروب الصليبية . ويشهد بذلك علماء القانون البحري في أوربا ونذكر من ذلك على سبيل المثال كلمة Avarie ومعناها «عوار» و Amiral «أمير البحر» و Arsenal «دار صناعة» و Calphater «قلفطة» و Cable «حبل» و Corsaire «قراصنة» و Ancre «أنجر أي المرساة» . الى غير ذلك من الكلمات .

محمد كامل ملش

ترى هل يقتنع المجمع العلمي بهذا ويريح نفسه ويريحنا من هذا العبث الذى ينفق فيه الكثير من الوقت والجهد . ولست أعرف الاسبانية ، ولكنني حينما زرت مدريد في الشتاء الماضي وأنصتُّ الى أحاديث الاسبانيين ، لاحظت أن لغتهم أخذت الكثير من الكلمات العربية . ولم تأخذ الكلمات فحسب ، بل أخذت أيضاً الكثير من التقاليد والعادات .

ان محاولتنا أن نعزل أنفسنا عن العالم محاولة تدل على ضيق الأفق ، وسوء التفكير .. ألا ينادي البعض اليوم بالعودة الى النظم التي كانت سائدة في عصور الاسلام الأولى ؟ أليست هذه ردة عجيبة في وقت يدعو فيه كل شيء للتحرر والتقدم ... وهؤلاء القائلون أنفسهم قد قدموا الدليل على أنهم لا يفهمون روح الاسلام ولا حكمة التشريع ، ولو رجعوا الى ما كان يجري في صدر الاسلام من قياس الأشياء بضروراتها ، ونسخ الأحكام ، وتيسير الأمر على الناس ، ولو وعوا أن الاسلام لم يقصد قط بخلود حكم من الأحكام فيما عدا العبادات ، لأدركوا أي دين عظيم هذا الدين ، وأية شريعة سمحة هذه الشريعة .. ولكنهم بضيق التفكير وضآلة الفهم يجنون على الاسلام أعظم جناية ..

ليست اللغة اذن هي التي يصيبها شر الجامدين ، ولكنها أقدار البلاد ومصائرها أيضاً .. وقاها الله الشرين .

محمد زكي عبد القادر

هذا ما نشرته « الأخبار » وما نخال أن شفقة الناقد على صغار التلاميذ بفساد أذواقهم اذا استظهروا مثل هذه الكلمات الا شفقة في غير محلها ، ولم ندرك وجه الثقل في الألفاظ العربية وما كان ظاهر الخفة في المفردات الافرنجية ولا السر في تحسين هذه في ذوقه وتقبيح مرادفها من العربية ٠

وعندنا أن ذوق الطالب يستقيم اذا أكثر من تلقف ألفاظ عربية في دراسته الأولى فيألفها ذوقه وان رأى فيها شيئاً غريباً عنه ، يألفها أكثر من ألفاظ ما حببت الى من حببت اليه الا لاستحكام العامية فينا في معظم مظاهر الحياة ، على حين نزعم أننا دعاة تجدد وأباة جمود ٠ وأغرب ما في الباب أن تصدر هذه النقدات من صاحب قلم ما زال مشرعاً في خدمة العروبة والمدنية ٠

وانا اذا اكتفينا بما ورثناه من عصر الانحطاط اللغوي من الألفاظ الفرنجية التي تسربت الى لغتنا على حين غفلة منا وتجافينا عن الأخذ باستعمال ما يضعه لنا مجمع اللغة العربية من الألفاظ فمعنى ذلك أننا ندعو جهرة الى زيادة نصيب العامية في كلامنا زيادة تخرجها مع الزمن عن جمالها واستقلالها فتصبح كلمة مالطة كل لفظة من لغة تخالف الأخرى ٠ وعندها نندم لفتح الباب أكثر مما فتح للدخيل وتكثر الألفاظ الغريبة في لغتنا حتى تكاد لا تضبط ولا يوجب دخول ألفاظ من الفارسية والهندية في لغتنا قديماً ان نرحب اليوم بكل دخيل وهو يسري الينا بالألوف ، وهل من الحكمة أن نقرها كلها ولا نترك لأهل الرأي في اللغة أن يقروا الأصلح لسلامتها ودفع عادية الغريب عنها ٠

لا جرم أن الناقد الحصيف اذا أعاد نظره فيما كتب وتروى قليلاً في الرأي الذي سارع الى اصداره يشاطرنا رأينا في الاستعاضة عن الدخيل بما يسد مسده من لغتنا ٠ وكنا نتوقع منه أن يثني على جهود مجمع اللغة العربية المصري في العناية بما أنشئ لأجله لسلامة اللغة ، لا أن يحمل عليه كما اعتادت بعض الصحف أن تضربه وتدميه منذ السنة الأولى لتأليفه مدفوعة بشهوة النقد أو من باب : خالف تعرف ٠

م ـ ك